إلى أنسى

رواية

دينا هاشم

الرواق للنشر والتوزيع

الفصل الأول

أغمض عيني بقوة، أتنفس بعمق، أحاول بشدة أن أخفف ذلك الضجيج المزعج في ذهني، أتكئ على سور الشرفة، أفتح عيني ببطء وأرمق ليل مدينتي الهادئ، البيوت المتدثرة بالظلام إلا من بعض المصابيح المصابة بالأرق مثلي، الشارع الناعس الساكت إلا عن مواء قطة هنا أو هناك تخبرني أنني لست الوحيدة التي تجد صعوبة في النوم، وكأن خلايا مخي تعاقبني على إنهاكي الدائم لها، فتأبى أن تستسلم للنعاس إلا بعد أن تذيقني بضع رشفات مريرة من كأسي، لماذا تطاردنا ليلا كل الأفكار التي نتحاشاها نهارا؟ لماذا تثقل أجفاننا في أثناء العمل أو الدراسة أو الاجتماعات ويجافينا النوم حين نضع رؤوسنا على الوسادة؟ لماذا تهاجمنا تلك الرؤى المؤلمة لما كان، وما كان بالإمكان أن يكون، وما لن يكون أبدا، وما لم يكن ليكون يوما؟ هل تفهم ما أعنيه؟ «لماذا» يا لها من أداة استفهام قاتلة! الأسئلة التي تبدأ بـ«لماذا» لا نجد لها إجابات شافية في معظم الأوقات، ومهما حاولنا تفاديها نهارا تأتي ليلا لتملأنا بحزن يلتف على أحلامنا، على أرواحنا، يعتصر منها أي رغبة في الحياة، حزن يتجدد مع كل يوم يتساقط من عمرنا الذي نخشى أن نتساءل يوما فيم أضعناه، ونحن نعلم يقينا أننا أضعناه.

أرفع جسدي لأجلس على سور الشرفة، أريح رأسي على الجدار وأمدد ساقي على السور، على يميني تغرق غرفتي في الظلام بينما تتراقص الظلال على الحائط بفعل الأنوار الآتية من الشارع على استحياء، أدير رأسي إلى اليسار حيث لا شيء، لا شيء إطلاقا، مساحة من الفراغ المزدحم على ارتفاع ٦ طوابق، الفراغ المغري بالقفز وفرد الذراعين والاستمتاع بنسائم الحرية الباردة لأول وآخر مرة، أأرجح رأسي يمينا ويسارا، وأرخي ساقي اليسرى لتتأرجح على السور الخارجي، ربما لو أملت جسدي ناحية اليسار قليلا لانتهى كل شيء في ثوان.

أنظر إلى السماء الملتحفة بليل بارد النسمات، إله السماء يراني، يعلم ما في نفسي، وأنا أعلم أنه يراني وأنه أدرى بي وأعلم، ولكنني أبعد ما يكون عن ربي، أعلم ذلك جيدا وأعلم أنه يجب علي تغيير هذا الوضع إلى الأفضل، لكن لشيطاني اليد العليا حتى الآن. هناك جزء ما مفقود مني، هناك فجوة مريعة في روحي تتسلل منها الأفكار اللعينة والأحزان السوداء لتحيلني إلى كتلة من الاكتئاب تسير على قدمين، لكنني أجيد التخفي، لو قابلتني فلن تصدق مطلقا

أنني ذات الفتاة التي تسهر ليلا ترثي حالها حتى شروق الشمس.

تنتزعني الشمس من دوامة الأفكار المريعة، أسحب ساقي قبل أن يراني أحد الجيران المتحمسين ويتحول المشهد إلى فقرة من فقرات الكاميرا الخفية، أقفز إلى الشرفة متمتمة بسخرية «ربما غدا» وأدلف إلى الغرفة، أمارس الطقوس الصباحية ببراعة، الاستحمام والاستعداد للعمل، الابتسامة المشرقة والتفاؤل المعدي، المزاح مع من أصادفه مستيقظا من أسرتي في هذا الوقت الباكر، ثم النزول إلى الشارع بمنتهى النشاط، مع كوب القهوة العملاق، والانطلاق بسيارتي الصغيرة قبل الازدحام، أصل إلى العمل قبل الجميع، أجلس إلى مكتبي الصغير، أضع حاسبي النقال أمامي وأبدأ في تشغيله، وأرتشف القهوة الساخنة في استمتاع حقيقي بهذا الفيلم المكرر، يبدأ زملائي في الحضور وتبادل التحيات الصباحية والمزحات المعتادة بشأن مجيئي مبكرة يوميا، وهي تعليقات سخيفة في الواقع من نوع «انتي بايتة هنا من امبارح؟» وهي تعليقات أقاوم بشدة التعليق على مدى سخافتها كي لا أخسر علاقتي بمن حولي.

- أتريدين السفر؟

تقولها «بسمة» وهي تجلس على طرف مكتبي وتلتقط كوبي وترشف منه السائل البني السحري، أختطف الكوب من يدها.

- بالطبع أريد، السؤال هو «هل أستطيع؟» لكن إلى أين؟

- رحلة.

تقولها وهي تلتقط قلما من أمامي وتبدأ في «التكتكة» به، أضع الكوب من يدي وأسحب القلم من يدها.

- ألن تتوقفي عن تلك العادة المزعجة؟ ألم تخبرك والدتك ألا تمدي يدك إلى ما لا تملكينه؟

- تعلمين أنني لا أستطيع الكلام ويدي فارغة.

- إذن أحضري شيئا من حاجياتك واتركي أشيائي لحالها.

تقفز من على المكتب وتضحك ضحكتها المتقطعة وهي تلتقط القلم من يدي مرة أخرى.

- وأين المرح في ذلك؟ المهم، هناك رحلة تنظمها الموارد البشرية إلى

maktabah.blogspot.com

«الواحات» هل تودين الذهاب؟

- الواحات؟!

- أجل، الواحات البحرية، الصحراء البيضاء، البحيـ...

أقاطعها قبل استكمال درس الدراسات الاجتماعية:

- أعلم ما هي الواحات أيتها المتحذلقة، ولكن لماذا الواحات؟

تهز كتفيها وهي تضع القلم وتلتقط ورقة ما من أوراقي وتقرأ ما بها:

- لا أعلم، تغيير ربما.

تضع الورقة من يدها وتنظر إليّ:

- التغيير مفيد يا «سارة» وأنا وأنتِ نعلم جيدا أنك بحاجة إلى التغيير.

أتحاشى النظر إليها وأتصنع البحث عن ملف ما في حاسبي فتمد يدها وتغلق غطاء الحاسب على أناملي.

- ماذا تفعلين؟!

تنظر إلى عيني في جدية.

- لا وقت لديّ للترهات، ليس معنى أنني لا أتحدث عما أراه أنني عمياء.

- لا أفهم ما تعنين.

- بل تفهمين جيدا، وأنا أيضا أفهم جيدا، هذا عملي يا حلوة، لكنني لن أضغط عليكِ لتتحدثي، تعلمين أنه بإمكانك الكلام معي عن أي شيء في أي وقت، لذا «خذي راحتك» لكن من فضلك لا تستهيني بذكائي، المهم ستأتين.

- لا أعرف بعد، في المنزل يجب أن...

تهز إصبعها أمام وجهي.

- لا لا لا يا حلوة، لم يكن هذا سؤالا.

تقولها وهي تلتقط القلم مرة أخرى وتغادر إلى مكتبها، الحق إنني بالفعل في حاجة ماسة إلى التغيير، ثورة تغيير شاملة لكل شيء في حياتي إذا أردت

استمرارها. هل حان وقت التعارف؟ اسمي سارة وصفي، الشركة التي أعمل بها هي إحدى تلك الشركات التي تقدم باقة من الخدمات على غرار «التسويق، الترجمة، الوساطة، الخدمات التنظيمية، إلخ» لذا لا يمكن تحديد نشاطها بالضبط، قد يكون صاحب الشركة من أعتى تجار المخدرات وما الشركة إلا واجهة شرعية لإخفاء تجارته غير الشرعية، غسيل أموال ربما؟ وقد أكون أسرفت في مشاهدة مسلسلات الجريمة على MBC action، لا أعرف يقينا، ولا يهمني أن أعرف ما دام راتبي يصلني كاملا كل شهر، مادية، أليس كذلك؟ أعمل في قسم الترجمة وهو عمل لا بأس به، ومن ناحية أكثر إشراقا، فأنا سعيدة الحظ للعثور على عمل يناسب دراستي ويدر دخلا معقولا، إذا كنت مصريا فأنت تعلم بالضبط ما أعنيه. المهم، تريدني «بسمة» أن أرافقها في رحلة الواحات، ويبدو أنها أصدرت فرمانا واجب التنفيذ بذهابي، «بسمة» هي الفتاة الذهبية في الشركة، تترأس قسم الخدمات التنظيمية وهو قسم ينظم الأحداث الاجتماعية بدءا من المؤتمرات وحتى سبوع المولود، لذا لك أن تتخيل شبكتها العنكبوتية العملاقة من المعارف والعلاقات. تريد وصفا أكثر تفصيلا؟ حسنا، أنت تعرفها، الفتاة باهرة الجمال شديدة الدهاء، صاروخية الطموح، أعتقد أنها من سلالة شجر الدر مباشرة. هل كونت الفكرة؟ لا تسألني عن رقم هاتفها من فضلك، الحق إننا مختلفتان تماما ولكننا صديقتان مقربتان، وإذا تغاضينا عن مسألة «وضع اليد» على كل ما تراه أمامها فهي فتاة لا بأس بها، مخيفة أحيانا، لكنها غير مؤذية، وتتعامل معي من منطلق أنني ابنتها بالتبني على الرغم من أننا في نفس العمر.

أغادر العمل في تمام الخامسة وأتبادل التحية مع الجميع قبل أن ألقي جسدي وحقيبتي في السيارة، أدير المفتاح وأريح رأسي على المقود، «إلى أين سأذهب الآن؟» لا أريد العودة إلى المنزل حيث ينتظرني الاكتئاب المسائي الذي يصاحب تعليقات أمي على خلو يدي من خاتم الزواج، والانغماس في العمل بشكل زائد و... إلخ، ولست في المزاج الملائم للخروج. تنتزعني طرقات على زجاج النافذة، أرفع رأسي فأجد «بسمة».

- لا تنسي، الأسبوع المقبل، ٣ أيام، سلام. انتظر يا «مهاب».

تقولها كأنما تملي علي تليغرافا ثم تتركني لتملي على «مهاب» تليغرافا مماثلا، تلك الفتاة مصابة بهوس السلطة، أبتسم في سخرية وأبدأ في التحرك، أقصد أبدأ في الالتحام، من الغريب حقا عدم وجود حل جذري للزحام حتى الآن مع

وجود ملايين من المحللين والعباقرة في مصر، طراز العباقرة الذي يجلس على القهوة يحلف بالطلاق ثلاثا أنه يستطيع الوصول بمصر لكأس العالم لأنه أدرى وأقدر من كل من دربوا المنتخب على مدى التاريخ، نحن نجيد طرح المشكلة وتعقيدها، أما حلها فهذا أمر آخر، هناك خلل جيني ما في هذه النقطة عند المصريين جميعا، عندما أقابل شخصا قادرا على حل مشكلة بهدوء وحرفية أتأكد أن كروموسوماته تعج بالـDNA الخاص بأحد المحتلين الذين تعاقبوا على مصر، هذا ليس مصريا خالصا، على أي حال، يمر اليوم، كأي يوم، أريد الخروج عن الخط الروتيني الممل لكن بعد أكثر من ساعة من «الانحشار» المروري يكون جل ما أريده هو الاستحمام والاستلقاء على الفراش ومراقبة السقف في هدوء، وهو ما أفعله، أنظر إلى السقف الأبيض بعينين زجاجيتين، يتحول السقف إلى شاشة عرض سينمائية ثلاثية الأبعاد تأخذني إلى ماضٍ ليس ببعيد، إلى وجوه لم أنسها ثانية واحدة على الرغم من إصراري على أنني نسيتها تماما، إلى أيام لا أستطيع تصديق أنها حدثت ومرت وصارت ذكرى تتراءى في لحظات اللاوعي، حتى ملامحي تبدلت بشكل ما، ما زالت عيناي تنعمان بلونهما الرمادي، ما زالت بشرتي تحتفظ بلونها الخمري، لم أصغُر أنفي مؤخرا، لكن من قال إن هذا فقط ما يحدد ملامحنا؟ أثر الروح في الوجه لا يمكن إنكاره، وهذا هو ما تغير بالفعل، تنساب الدموع على جانبي وجهي، يتبعها ذلك الوجيب الحارق في قلبي، إحساس الافتقاد القاتل يحيلني إلى كتلة من الألم، أفتقد تلك الأيام، أفتقد وجهي الحقيقي، أفتقد «أبي» أفتقد نفسي، وبقدر ما أكره الاعتراف بذلك، فإنني أشعر بالافتقاد، وبشدة.

صوت خطوات أمي تتجه إلى الغرفة، أدير وجهي لأدفنه بدموعه أسفل الوسادة، تفتح الباب وتدلف إلى الغرفة.

- سارة، ألن تأكلي؟

أرفع يدي وأشير بالنفي.

- ماذا بكِ؟ هل أنت بخير؟

- أجل يا ماما، أريد النوم فقط، صداع.

خانني صوتي الغارق في الدموع، تجلس على طرف الفراش وتمد يدها ترفع الوسادة من فوق رأسي.

maktabbah.blogspot.com

- انظري إليّ.

أتردد ثانية ثم أعرف أنه لا مفر، أنظر إليها بعينين أستطيع تخيل حالتهما المزرية، تهز رأسها بمعنى «هذا ما توقعت».

- هل حدث شيء جديد؟

- لا، أنا فقط متعبة.

أعتدل من استلقائي، وأجلس كي أستطيع الكلام.

- أخبرتك ألف مرة أن تبحثي عن عمل آخر، أنت تقتلين نفسك في هذا العمل الذي يلتهم وقتك بأكمله ولا يترك لك أي وقت لممارسة حياة اجتماعية طبيعية، إلى متى ستستمر هذه الحال؟

بالطبع، لا تمر أي مناسبة من دون مهاجمة العمل وساعات العمل والتلميح إلى فناء عمري من دون زواج... إلخ، وهو ما تعلمت الرد عليه بشكل عملي.

- أين هو العمل الآخر يا ماما؟ أشيري إليه وسيسعدني الانتقال فورا.

تزفر في ضيق وتمد يدها إلى وجهي لتمسح بقايا الدموع، وترفع شعري عن جبيني.

- لا شيء يستحق البكاء، لو كانت الدموع تعيد من رحلوا لما توقفنا عن البكاء مطلقا.

هي تتحدث عن أبي رحمه الله، الحق إنني لم أزل لا أصدق أنه رحل، ولا أزال أنتظر عودته ليلا حاملا «الحاجة الحلوة» مع ابتسامته العريضة، لا أذكر أن أبي إلى المنزل يوما من دون «حاجة حلوة» قد تكون حلوى أو فاكهة أو لعبة، المهم أنها شيء يسعدنا، كنا صغارا نصطف على سور الشرفة ننتظر سيارته، وما أن نراه يترجل منها حتى نتسابق إلى الباب في لهفة على غنيمة اليوم، نصيح عند فتح الباب فاتحين أياديناً، بينما تصرخ أمي:

- لن ترتاح حتى يسقط أحدهم من الشرفة، أليس كذلك؟

لم يكن يبدو أنه يسمعها، كان يستمتع بصيحات فرحتنا به، وما أن نفترق لمقارنة الغنائم حتى يلقي بجسده على أقرب مقعد ويردد ككل يوم:

maktabah.blogspot.com

- ربنا هو الحافظ يا منى.

مرت الأيام سريعا، كبرنا على الحلوى ولم تعد الفاكهة أو الألعاب تغرينا، لم نعد ننتظر في الشرفة، ولا نقف خلف الباب، كان أبي يعود فلا يجد إلا غرفة معيشة خالية، كل منا يجلس في غرفته، منا من يذاكر ومنا من يتحدث في الهاتف ومنا من يلتصق على مقعد أمام الحاسب، وعلى الرغم من ذلك كان يأتي لكل منا «بحاجته الحلوة» إلى غرفته، أحيانا كنا نشكره، وكثيرا ما كنا ننسى، ككل شيء نعتبر وجوده أمرا مسلما به، لم نكن نتخيل أن يأتي اليوم الذي يغادر فيه أبي المنزل ولا يعود إليه أبدا، ككل شيء ذي قيمة لا ندرك قيمته حتى نفقده، رحل أبي ورحلت معه كل «حاجة حلوة» أبي الطيب مات.

أتذكر وجهه وأنهمر في البكاء، أدفن وجهي في صدر أمي، أمقت ذلك اليوم الذي يأبى فراق ذاكرتي، أمقت نفسي لأنني تشاجرت معه قبل خروجه الأخير، أمقت لساني الذي نطق بكلمات يتساقط منها الجفاء والجحود، كلمات أطفأت بشاشة وجه أبي وجعلته يغادر المنزل باحثا عن متنفس لخيبة أمله في ابنته الوحيدة، غادر أبي ولم يعد، لم أر وجهه الطيب مرة أخرى، ولم أعلم مطلقا هل سامحني أم لا، عينا أمي ما زالتا تلومانني وإن كانت تشفق علي من إحساس الذنب كلما ذُكر والدي، لا نتحدث عن ذلك اليوم مطلقا، مهما تحدثنا لن يعود الغائب.

تربت أمي على رأسي.

- لن يغير البكاء شيئا يا سارة، هيا، اغسلي وجهك وتوضأي وصلي ركعتين لله وادعي لأبيك.

تقولها وتعينني على النهوض، أمسح وجهي بظهر كفي وأتجه إلى الحمام، أغسل وجهي وأنظر مليا في المرآة، لو كان هذا فيلما جيدا لظهر أبي الآن خلف انعكاسي في المرآة ليخبرني أنه راض عني فيستريح ضميري، لكن لا يوجد في المرآة إلا وجه منتفخ من أثر البكاء، ورأس يكاد يسقط من ثقل أفكاره، أفتح الصنبور وأضع رأسي بأكمله تحت الماء، ينساب الماء على وجهي ورقبتي وأتمنى لو يخترق جمجمتي ليبرد مخي قليلا، أرفع رأسي وأبدأ في الوضوء ثم أتجه إلى غرفتي، أضع الحجاب وأتجه إلى القبلة، أقف على سجادة الصلاة ولا أفعل أي شيء، أنظر إلى موضع السجود ولا أقوى على رفع بصري، أحاول رفع ذراعي للتكبير لكنهما تزنان أطنانا، أحاول قول أي شيء، أفتح فمي ولا تخرج أي كلمة،

فقط أشرد في موضع السجود وأشعر بالضيق، تتباطأ ضربات قلبي وأشعر بعدم القدرة على التنفس، أنزع الحجاب وألقيه على الفراش وأهرع إلى الشرفة، أستند إلى السور وأحاول التنفس، «يبدو أن الله لا يريد صلاتك يا سارة» لا أدري إن كنت أنا من قلتها أم شيطاني المجتهد، أنظر إلى السماء الحالكة وأهز رأسي في عنف.

- لا، لا أريد التفكير في أي شيء.

أقولها بهيستيريا وأغادر غرفتي وأتجه إلى غرفة «حسام» أخي، ومن دون أي استئذان من أي نوع أفتح الباب وأدلف إلى الغرفة، يجفل أخي الجالس على فراشه «يدردش» على حاسبه النقال على ما يبدو.

- ما هذا؟ هل ماما بخير؟

يقولها وهو يقفز من الفراش ويلقي الحاسب جانبا.

- ماما؟!

أنتبه إلى أنه ربط بين وجهي المزري ومصيبة ما، وبالطبع بعد أبي أصبنا جميعا بفوبيا حدوث أي مكروه لأمي، لسنا صغارا، حسام أنهى دراسته وتجنيده ويعمل «مصمم ويب» وهو بارع في عمله بالمناسبة، أما أخونا الأكبر «محمد» فتزوج قبل وفاة والدي ببضعة أشهر ويعيش في الإسكندرية مع زوجته، المفترض أننا أشخاص في مرحلة النضج نستطيع تحمل المسؤولية و«فتح بيوت» لكن من قال إن هذه القاعدة تسري عند الحديث عن الوالدين؟ لقد فقدنا أبانا وأصبحنا أيتاما، لو - لا قدر الله - حدث أي مكروه لأمنا فسوف ننتقل إلى فئة «مقطوعين من شجرة» ولسوف يزيد تبعادنا ونصير إخوة بالاسم فقط.

- لا تخف، هي بخير.

يزفر في ارتياح ويلقي بجسده على الفراش ويشير إلى وجهي.

- هل كنتِ تبكين؟

- لا كنت أقشر بصلا، أريد الخروج.

يلتقط هاتفه من أسفل الوسادة وينظر إلى الوقت.

- لقد انتصف الليل يا آنسة سندريلا.

maktabbah.blogspot.com

- أعلم، لذلك جئت إلى الساحرة الطيبة.

أطوق جذعه بذراعي وأحاول زحزحته من الفراش، وهي محاولة تماثل زحزحة الجدار.

- هيا يا حسام يا حبيبي، أنت أخي المفضل في هذا البيت، هيا نخرج قليلا، ساعة واحدة فقط.

يرفع حاجبه وينظر إلي في شك، أنظر إليه بعينين تحاولان تصنع البراء والانكسار، يبتسم ويهز رأسه في استسلام.

- حسنا، هذه المرة فقط كي نطهر عينيك من أثر تقشير البصل.

يقولها بتهكم ويشير إلي بالخروج، فأغادر لتبديل ملابسي وأنتظره أمام الباب.

- إلى أين؟

تقولها أمي في استنكار.

- أريد استنشاق بعض الهواء وسأصطحبها معي.

يقولها حسام وهو يلتقط مفتاح السيارة المعلق بجانب الباب.

- هل هذا وقت مناسب لاستنشاق الهواء؟

- هذا أفضل وقت يا ست الحبايب، بعيدا عن الحر والزحام.

يقولها حسام بابتسامة وهو يطبع قبلة على يد أمي بينما تنظر هي إلي نظرة من نوع «أعلم أنك وراء هذا» فأعقد حاجبي وأشيح بنظري إلى السقف وأتفاجأ بوجود المصباح في محاولة فاشلة لتصنع البراءة، يغمز حسام لأمي ويدفعني أمامه.

- لن نتأخر.

يقولها وهو يغلق الباب خلفه ويردف:

- تذكري هذا المعروف.

أجلس في المقعد المجاور لحسام، وأفتح زجاج النافذة لأقصى حد، ينظر إلي في المرآة ويبتسم.

maktabbah.blogspot.com

- إلى أين يا أخت سيندريلا؟

- أي مكان.

أقولها وأنا أضع رأسي على إطار النافذة، تبدأ السيارة بالتحرك ومن مشغل الموسيقى ينساب صوت فيروز:

ليالي الشمال الحزينة

ضلي اذكريني اذكريني

ويسأل عليّ حبيبي

بليالي الشمال الحزينة

* * *

نجلس على مقعدين متباعدين في المقهى الصغير، نجلس كغريبين ينتظران مرور الوقت ليتنفسا الصعداء ويفترقا.

كم مرة تكررت هذه القصة؟ كم مرة يتكرر هذا المشهد؟

أنظر إليه بينما يتحاشى النظر إليّ، يسحب لفافة تبغ من علبته ويشعلها، ينفث الدخان في عصبية أعرفها جيدا، يبتسم ابتسامة بلا معنى ويبدأ في تمزيق قلبي.

- أنا أعلم جيدا أنك تحبيني وأنا أيضا أحبك، الحب ليس هو المشكلة، المشكلة هي أنني لم أعد أستطيع مواصلة هذه العلاقة.

يرفع عينه إلى عيني ليرى وقع كلماته القاتلة ولكنني بمعجزة ما أحتفظ برباطة جأشي، فيكمل:

- لقد تحدثت مع والدك حول رغبتي في خطبتك، وأخبرت أسرتي، ومن المفترض أن الجميع ينتظر الخطوة التالية الآن، وأعني الجميع، كل من يهمهم أمري يرغبون حقا في هذه الخطوة، لكن المشكلة أنني لم أعد أرغب في المواصلة، أشعر وكأنني حصان سباق يركض ويركض بلا توقف لأن الكل ينتظر منه الركض، وفجأة توقفت، لأكتشف أن هذا ليس ما أريده، هل تفهمين؟

- لا، لا أفهم.

مكتبة
maktabah.blogspot.com

أقولها ببطء بلسانٍ يرتجف وأنا أقمع الدموع في عيني ظلما وعدوانا، يلتهم نفسا آخر من لفافة التبغ وينفثه ببطء.

ـ أنا لا أنكر أنك تحملت الكثير معي، ربما أكثر من أي شخص آخر، لكننا نتحدث عن أشياء أكبر الآن، نحن نتشاجر أكثر من اللازم، فجوة الخلاف بيننا تزيد كل يوم وتبتلع كل ما كان جيدا في هذه العلاقة، المشكلة ليست بك.

أبتسم ابتسامة جانبية ساخرة، «أهلا أهلا» يقولها عقلي الذي يحاول أن يكون الناجي الوحيد من المذبحة التي تحدث حاليا لقلبي ومشاعري، أعرف هذه العبارات جيدا، «عبارات القتل الرحيم» بالطبع المشكلة ليست بي ولكنها به، أو لعلها الظروف، وبما أنه استخدم هذه العبارة المبتكرة فالعادة تقتضي أن تتبعها عبارة «أنت تستحقين شخصا أفضل مني بكثير» الشهيرة، و«ربنا يوفقك» ثم تصفيق حاد لهذه الشهامة النادرة.

ـ سارة.

ينتزعني صوته من أفكاري.

ـ أنا أتحدث معك في أمر حيوي وأنت تشردين!

أيها الـ «...»! هل جرحت مشاعرك بشرودي؟!

ـ أسفة، كنت تقول؟

ـ كنت أقول، إنك تستحقين شخصا أفضل مني ألف مرة.

تفلت شهقة غير مصدقة مني، «لقد قالها حقا!» وتتداعى معها كل الإجراءات القمعية التي اتخذتها ضد البكاء في العلن، تنهمر الدموع من عيني وقلبي ثائرة حارقة، ويتساقط السؤال على شفتي:

ـ لماذا؟

ـ سارة من فضلك، أنا أحاول أن أفعل الأمر الصحيح هنا، لقد كانت علاقتنا رائعة لكنها ـ ككل شيء ـ وصلت إلى ذروتها ثم بدأت في الانحدار، توقفي عن البكاء وإلا سأغادر، أنا لا أستطيع الحديث هكذا.

أنظر إليه بعينين لا تريان، كلماته الباردة تنتزع قلبي انتزاعا، أنظر إليه وأنا أشعر أن العالم يتهاوى من حولي.

maktabah.blogspot.com

- لماذا يا محمود؟ أنا أحبك.

أقولها وكأنني أزفر آخر أنفاسي ولا أجد لها إجابة في كلماته.

- لقد تحدثنا في هذه النقطة من قبل، المشكلة ليست في الحب.

أقاطعه بثورة محتضرة:

- لكن الحب مهم، بل هو أهم شيء، يمكننا دوما البدء من جديد، يمكننا تقدير الأضرار والبدء في إصلاحها، كل شيء قابل للإصلاح ما دمنا معا، أنت أخبرتني من قبل مرارا أنك لن تتركني مطلقا، أنت قلت إنك ستظل دائما معي، إننا لا يمكن أن نفترق لأن كلا منا أصبح قدر الآخر.

- كنت مخطئا يا سارة، كنت أحسب أننا سنظل معا لكنني كنت مخطئا، أنا آسف حقا، لكنني توقفت عن حبك منذ فترة، كنت أحاول أن أحيي ذلك الإحساس داخلي مرة أخرى لكني لا أستطيع، آسف.

تتسع عيناي ذعرا، إنه بالفعل يقتل كل شيء مع سبق الإصرار، أشعر بثقل العالم فوق صدري، لا أستطيع التنفس، دموعي لا تتوقف عن حرق قلبي، وبصوت مرتعش أحاول مرة أخرى:

- هذا ليس ممكنا! هل تعني أنك كنت تحبني ثم نمت واستيقظت ولم تعد تحبني؟

- هذا ما حدث.

- هل تعي ما تقول؟ هل تفهم تبعات ما تقوله؟

- أجل، وإلا فلم أكن لأقول شيئا.

- ولكنت قلت إنك لن تتركني، أنت قلت يا محمود، قلت كثيرا جدا وأنا صدقتك.

- وأنا لم أكذب، أنا فقط أخطأت في تقدير بعض الأمور، وها أنا أصحح هذا الخطأ كي لا يستمر أكثر من ذلك.

- خطأ!

أرددها مبهوتة، أأضحى حبي له «خطأ واجب التصحيح»؟ عقلي يتمزق بصور الذكريات والكلمات والوعود، مشاعري التي سكبتها بلا حساب أحسبها تروي

maktabah.blogspot.com

نبتة حب ستنمو حاملة معها حلم البيت والاستقرار، عمري الذي انسابت أيامه بين يديه تعده بالمزيد من الأيام معه حتى يفرقنا الموت، لقد كان حلمي، وكنت على أعتاب تحقيقه، ياه! كم كان دانيا! كان باستطاعتي رؤيته بل ولمسه، إنها الأحلام حين تتجسد أمامنا وتصبح لها أبعاد وألوان، حين نحسب الخطوات التي تفصلنا عنها ونجدها قريبة إلى حد مفزع، قريبة إلى حد يمنحنا كل القوة لنكمل، لنحققها، ثم ينهار كل شيء بغتة، ينهار ويجذبنا إلى الهاوية، كيف تبني حياتك على كلمة اعتقدتها راسخة رسوخ الجبال ثم تتفاجأ بأن كل ما بنيته كان «خطأ»؟

أرفع بصري إليه، أحتضن ملامحه بعيني لآخر مرة، ألملم أشلاء آدميتي وأغادر من دون كلمة أخرى، أفتح باب سيارتي وألقي بجسدي المثقل بخيبة الأمل على المقعد وأدير المفتاح، وقبل أن أتحرك أنظر مرة أخرى إليه عبر زجاج المقهى، يشعل لفافة تبغ أخرى، يحمل فنجان القهوة بيده الأخرى، ولا ينظر إليّ مطلقا، بينما تصدح فيروز من مكان ما:

ليالي الشمال الحزينة

ضلي اذكريني اذكريني

ويسأل عليّ حبيبي

بليالي الشمال الحزينة

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr

maktabbah.blogspot.com

الفصل الثاني

أجلس في سيارتي أستمع إلى برنامج إذاعي مرح يتحدث عن أشياء لا تهمني مطلقا، أقطع الطرق إلى عملي، زحام لا ينتهي، ضوضاء لا تصمت، وفوضى لا تتوقف، من المؤلم أن تكون ذكرياتي عن الصباح هي سباب السائقين وعوادم السيارات وعبور المشاة من كل مكان ما عدا الأماكن المخصصة لذلك، وحين أحاول الالتزام تلاحقني الأبواق الغاضبة ولا بأس من بعض التعليقات العنصرية حول قيادة السيدات التي تعلمت ألا ألقي لها بالا، لأن من يتلفظ بها لا يستحق الانتباه إلى ما يتساقط من فمه.

أصل إلى العمل بسلام، أتجه إلى مكتبي وأبدأ في مواصلة ما كنت أفعله بالأمس، يتوافد الآخرون تباعا ويكرر اليوم نفسه بلا ملل.

- سارة، أحتاجك معي في عمل خارجي اليوم.

بالطبع كانت بسمة، تقف بجانبي ترسل ٦٦٤ بريدا إلكترونيا و٧٨٣٦ رسالة نصية و٩٨٤ رسالة فورية، وتتحدث في الهاتف في نفس اللحظة. في أغلب الوقت يتطلب عملي الترجمة الكتابية، لكن قد يتطلب العمل الترجمة الفورية ويكون ذلك خارج الشركة، أحيانا يكون الأمر مسليا وفرصة جيدة لكسر الروتين اليومي الخانق، وأحيانا يكون الأمر عقابا سماويا حين لا تكون لدي أي رغبة في التعامل المباشر مع أي شخص.

- متى؟

- نغادر بعد ربع ساعة.

تقولها وتغادر دون منحي مزيدا من التفاصيل، أغلق حاسبي وألملم أشيائي المهمة ثم أتجه إلى المصعد وأقف في انتظار الفرج، يقف بجانبي شاب نحيف البنية يرتدي نظارة طبية يعبث بها من آن لآخر، لم أره من قبل، إذن فهو بالتأكيد لا يعمل معنا، فأنا أعرف الجميع، لذا خمنت أنه أحد العملاء الكرام. يأتي المصعد أخيرا فيشير إلي بالدخول أولا ثم يتبعني، يسألني عن الطابق ويضغط الزر، يقف المصعد في الطابق الأرضي وينفتح الباب فأخرج ويتبعني لأجد بسمة في انتظاري.

- ها، إذن فقد التقيتما.

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

أنظر إليها بلا فهم ويبتسم الشاب في حرج، ثم يبدأ في التعريف عن نفسه.

- يوسف فاروق، مصور.

هناك حمى اجتاحت مصر مؤخرا، وهي التصوير الفوتوغرافي، أعتقد أن عدد المصورين في مصر يتجاوز عدد من يرغبون في التصوير، على أي حال هناك عدد قليل منهم لديه بالفعل الموهبة، والباقي إما يقلد ببراعة وإما يتحذلق ببراعة.

تشير بسمة إلي وهي تنظر في هاتفها اللوحي.

- وهذه مترجمتنا، سارة وصفي.

أهز رأسي محيية.

- سنذهب بسيارتي، هيا.

جلست بسمة خلف المقود وجلست بجانبها بينما ارتمى، أقصد جلس يوسف في المقعد الخلفي، وانطلقنا بالسيارة.

- سارة، الأستاذ يوسف يعد برنامجا تسجيليا لتشجيع السياحة في مصر، ويحتاج إليك في ترجمة الجزء الفرنسي من الإسكريبت.

- لماذا لم تأت به إذن؟

أخاطبه عبر المرآة الجانبية.

- الحق، إنني لا أريد الترجمة النصية فحسب، كنت أريد الترجمة الصوتية وسأضيفها إلى الفيديو لاحقا.

- لماذا لم تذهب إلى مكان أكثر تخصصا كالمركز الثقافي الفرنسي مثلا؟

تنظر إلي بسمة نظرة من نوع «أيتها الخائنة، تريدين تطفيش العميل؟».

يتنحنح يوسف في حرج ويعدل وضع نظارته الطبية.

- أنا، هذه أولى تجاربي في هذا المجال، أنا مصور فوتوغرافي بالدرجة الأولى، لكنني أردت أن أفعل شيئا مفيد لمصر في الظروف الحالية.

«ياللوطنية!» وقبل أن تسترسل أفكاري يردف:

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

- وهناك مسابقة.

آها، إذن فليست الوطنية فقط هي الدافع الوحيد لهذا الحماس.

- ولديّ صديق أخبرني عن شركتكم وأنه تعامل معها من قبل، فها أنا ذا.

التقطت بسمة طرف الخيط وبدأت حاستها الدعائية في العمل تلقائيا:

- أستاذ يوسف لن يكون هذا أول وآخر تعامل بيننا أؤكد لك، نحن في Master Minds نهتم جدا بتكوين قاعدة عملاء قوية، و...

تركت بسمة تكمل الفاصل الإعلاني وأشحت بنظري إلى النافذة، السحب الخريفية تتجمع على نحو محبب، وفي المرآة الجانبية كان يوسف ينظر إلي ويبتسم.

***

تتصاعد دوائر الدخان، تتلامس ثم تنفصل، تتباعد إلى أن تتلاشى، يستعر طرف لفافة التبغ بينما يمتص المزيد من الدخان إلى رئتيه تمهيدا لزفره ببطء في هواء الغرفة شبه المظلمة، لينضم إلى دوائر الدخان المتلاشية، الضوء الخافت الآتي من مكان آخر يعطي الدخان طابعا أسطوريا، يسند رأسه إلى حافة الفراش، يجلس بلا حراك يرقب حركة دوائر الدخان، يضيع فيها، يشعر بأنه دائرة أخرى على وشك التلاشي، هل مددت يدك يوما محاولا لمس الدخان؟ هل راقبت أناملك تخترقه؟ هل حاولت ضم قبضتك حوله؟ ثم ذلك الإحساس بالخواء حين تفتح يدك فلا تجد شيئا؟ لا يعلم جيدا ما الذي ذكره بها هذه الليلة بالذات، ربما لأنه وحده هذه الليلة فريسة للأفكار والذكريات، ربما لأنه تجنب التفكير فيها وقتا طويلا للغاية فثارت عليه أفكاره اليوم، لا يعلم، كل ما يعلمه أنه لا يستطيع النوم، ليس لديه أي رغبة في الخروج أو الحديث مع أحد، يحاول مشاهدة فيلم ما لقتل الوقت فيشعر بالسأم قبل أن يبدأ، يحاول أن يستمع إلى أغنياته المفضلة فيكتشف أنها تذكره بها بشكل ما فيلقي مشغل الموسيقى بعيدا، صورتها التي نجح طويلا في عدم التفكير بها تطل من كل خلية في رأسه، ابتسامتها، عيناها، يحاول عدم التفكير، لكن محاولاته تبوء بالفشل الذريع، يلتقط لفافة تبغ يشعلها في الظلام.

ويتذكر سارة، يتذكر محاولاتها المضنية لإثنائه عن التدخين، يتذكر يوم قرر التخلي عنها، كلماتها اللائمة، بكاءها، انكسارها، كيف كان بهذه القسوة؟ تنتهي

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

لفافة التبغ فيشعل أخرى ويستمر في نفث دوائر الدخان، هل يفتقدها؟ يتذكر مشاجراتهما وخصامهما الطويل، هل حقا كان الأمر يستدعي كل هذه الدراما؟ شجارات تبدو تافهة اليوم لكنها كانت سببا كفيلا وقتها في قتل اهتمامه بها، ذلك الاهتمام الذي كان ينمو يوما بعد يوم حتى وصل إلى ذروته ثم بدأ يذوي مع تنامي إحساسه بالملل، لامها كثيرا على عدم قدرتها على امتصاص غضبه، على عدم تقديرها لمزاجه العام وعدم اختيارها الوقت المناسب للحديث في أي شيء، يا لشدة استفزازها له! هل كانت حقا بهذا السوء؟ أم أنه كان يتصيد لها الأخطاء كي يرحل؟ لماذا يتجنب الوجود في الأماكن التي قد تكون بها؟ لماذا يشعر بالضيق حين يمر على الأماكن التي شهدت الكثير من أوقاتهما معا؟ ثم السؤال الأهم، لماذا كل هذه الأسئلة اليوم؟

ينفث دخانه بضيق، يغلق عينيه محاولا النوم لكنه يعلم جيدا أن النوم سيلعب معه لعبته السخيفة ولن يمتثل له قريبا، يطفئ لفافة التبغ ويستلقي على الفراش واضعا يده أسفل رأسه محدقا في الظلام، للمرة الأولى منذ سنوات يشعر ببرودة الطقس، تتزاحم الأسئلة في رأسه من دون أي إجابة، لكنها ليلة، مجرد ليلة وستنتهي، سيستيقظ غدا ولن يذكر أي شيء مما حدث، هناك من حللن محلها على أي حال وكل منهن كفيلة بإلهائه عن ذكراها الهاربة من قضبان النسيان.

* * *

تجلس مها كعادتها أمام الحاسب، تتنقل بسرعة احترافية بين برامج المحادثة وصفحات التواصل الاجتماعي، تتحدث مع عشرات الأشخاص في عشرات الموضوعات في نفس اللحظة، لا تشعر بمرور الوقت مطلقا، ربما تتعب عيناها بعد عدة ساعات من الانغماس في العالم الافتراضي، فتنهض لتريح جسدها على الفراش، تغمض عينيها قليلا ثم ما تلبث أن تفتحهما وتمد يدها أسفل وسادتها، تمسك بهاتفها وتواصل ما كانت تفعله على الحاسب مرة أخرى، ساعات تمر من عمرها بلا حساب، الليل يتصل بالنهار، والأيام كلها تمر بنفس الوتيرة، أحيانا تشعر بثورة خاطفة ضد هذا الانفصال الافتراضي عن الواقع، فتترك مقعدها المقدس أمام الحاسب وتبدأ في البحث عن عمل، لكن هذه الثورة ما تلبث أن تخمد شرارتها فتعود إلى عالمها الافتراضي طلبا لمزيد من الانفصال عن واقعها الذي تكرهه.

مها، الفتاة التي تتوسط فتاتين أخريين في أسرتها، فلا تحظى بالاهتمام الذي

maktabah.blogspot.com

تحتكره أختها الكبيرة ولا التدليل المسجل في الشهر العقاري باسم أختها الصغيرة، تحمل بكالوريوس التجارة بتقدير مقبول، وبلا أي مهارات لغوية أو شخصية من أي نوع، إلا سرعتها الفائقة في النقر على لوحة المفاتيح، لذا لم تتخاطفها البنوك أو الشركات، سنوات من البحث عن عمل لم تسفر إلا عن المزيد من الإحباط، ربما لو حظيت بتقدير أعلى في الدراسة، ربما لو كان لديها طموح أختها الكبرى وجمال أختها الصغرى، ربما لو كانت تتحدث عدة لغات مثل سارة أو تملك شخصية كاسحة كبسمة، لكن مها مصابة بلعنة «التوسط» تحمل القدر المتوسط من كل شيء، أنت ترى مها في كل مكان، في البناية، في الشارع، في العمل، الفتاة التي لا تذكر ملامحها بالضبط لأنها تشبه الجميع، والتي تستغرق وقتا لتتذكر اسمها، الفتاة التي لا تتباهى بها أمها مطلقا، ولا يحاول أي شاب التقرب منها إلا لتساعده في الوصول إلى فتاة أخرى، وحين دلفت إلى العالم الافتراضي علقت في الشبكة العنكبوتية باستسلام، آلاف الساعات تهدرها سنويا بين الصفحات الشخصية لأشخاص لا تعرفهم على مواقع التواصل الاجتماعي ومنتديات المحادثة، تسكب مشاعرها في مربعات حوارية مع غرباء لا تعرف عنهم إلا ما يقولون، تبحث بينهم عن القصة الخرافية التي ستغير من حياتها وتحمل لها السعادة الأبدية، مها التي انفصلت عن العالم الخارجي لدرجة أنها لم تعد تستطيع التواصل مع أسرتها أو من تبقى من أصدقائها، أصبح العالم الافتراضي هو عالمها الحقيقي، والواقع ما هو إلا فاصل مزعج تتحاشاه كالموت.

بين الحين والآخر تدخل أمها غرفتها لتتبادل معها نفس الحديث المكرر:

- ألا تملين من الجلوس أمام هذا «الزفت»؟

- هل هناك شيء أفضل أفعله؟

- تحركي، اجلسي معنا، اذهبي إلى سارة أو اخرجي معها، ألم تكن أفضل صديقاتك؟ ما الذي حدث؟

- لم يحدث شيء، هي مشغولة في عملها طوال النهار وتعود مرهقة وأنا لا أحب التطفل.

- أنا لم أعد أفهمك، وصبري قارب على النفاد، لا بد من إجراء يتخذه والدك معك، أنا تعبت.

وتغادر أمها الغرفة مع فاصل من الدعاء على من اخترع الإنترنت والحاسب

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

والهواتف وكل وسائل الاتصال أو ـ الانفصال ـ الحديثة، بالطبع تشكوها إلى والدها فيهدد بعدم دفع الاشتراك الشهري لخدمة الإنترنت، ولكنه لا يفعل وينسى الجميع حتى إشعار آخر.

الحق إنها كانت يوما ما صديقة سارة المقربة، أليس «الباب في الباب» كما يقولون؟ فما الذي حدث؟ ما حدث ببساطة هو أن مها قررت أنها ستحب، أجل ستحب، أليس من حقها أن تمر بهذه الحالة التي تتحدث عنها باقي الفتيات؟ أليس من حقها أن يكون لديها «هو» الذي يتحدث معها في الهاتف ليلا حتى شروق الشمس وتشتكي إلى صديقاتها من تحكماته الغبية وغيرته العمياء؟ أليس من حقها أن تنتظر وردا و«دبدوبا» أحمر اللون في عيد الحب؟ كان هذا جل ما تريده مها بشدة، وبما أنه لم يحدث فقد قررت أن تجعله يحدث، وبما أنها لم تكن حلم الشباب في الجامعة فقد قررت الابتعاد عن هذا المناخ والاعتماد على الاختيارات التقليدية، كأبناء العم أو الخالة، وبما أن والدتها ابنة وحيدة وأعمامها يعيشون في مسقط رأسهم في السويس، فلم يكن أمامها إلا آخر الحلول التقليدية: «ابن الجيران» هكذا جلست مها تفكر، «حسام» الشاب الوسيم والطالب الذكي، هذا الطراز من الشباب يكون شديد الثقة بنفسه إلى ما يقارب الغرور، وبالطبع تكون فتاة أحلامه إحدى آلهة الإغريق، «محمد» الشاب الطيب الهادئ، ليس بوسامة حسام ولا ذكائه، وبالتالي فليس له ذات الطموح في ما يتعلق بفتيات الأحلام، إنه الشاب العادي الذي لا يوجد ضرر منه، الشاب الذي يمكنك أن تراه بعين الخيال وقد انتصف عمره وتساقط معظم شعر رأسه وهو يعمل في وظيفتين ليوفر لأسرته حياة شبه كريمة. وبعد أن اطمئنت إلى قرارها زادت زياراتها إلى بيت سارة حتى أصبحت شبه مقيمة معها، كانت تُجري «دراسة حالة» بشأن محمد، أكلاته المفضلة، ألوانه المفضلة، طراز الفتيات التي تستهويه، الموسيقى التي يستمع لها، ما تعرفه مها وتقر به لنفسها فقط، هو أنها لم تحبه مطلقا، لكنها أحبت «الحالة» ولم يكن محمد غبيا، كان يدرك ما تحاول فعله وكان يحاول أن يوصل لها بأكثر الطرق تهذيبا أن ذلك لن يحدث، حتى بعد أن التحق بذلك العمل في الإسكندرية، كانت تنتظره أيام الخميس حين يعود وتحاول بشتى الطرق فتح أي حديث معه، لم يعد محمد وحده هو من يعي حقيقة الأمر، والداه وحسام وسارة فهموا ما يحدث، وبطريقة ما، لم يعد مرحبا بها في بيتهم، لذا وجدت حلا آخر، برامج المحادثة، لم يكن صعبا الحصول على البريد الإلكتروني لمحمد، وقررت الحديث معه صراحة:

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

- محمد، أنا لا أفهم الموقف العدائي ضدي في منزلكم.

- لا يوجد موقف عدائي، أنت صديقة سارة ومرحب بك في أي وقت.

- صديقة سارة فقط؟

- لا أفهم.

- أعني، هل أنا بالنسبة إليك، إليكم، مجرد صديقة سارة؟

«الكتابة جارية» ثم «توقف»، في ما بعد ستعرف أن هذه الرسالة تظهر حين يكتب الشخص شيئا ثم يمسحه، يبدو أن محمد كان يحاول إنهاء الموقف برمته بأكثر الطرق دماثة:

- مها، نحن إخوة، منذ كنا صغارا وحتى نهاية العمر، ولا يوجد أي شيء في الوجود من شأنه تغيير هذا الواقع.

كانت تلك الكلمات المقتضبة بمثابة الضربة القاضية لأحلامها، ضربة لكرامتها كأنثى، لذا فلم تحاول مرة أخرى، لم تعد تذهب إلى بيت سارة أو تتحدث معها، وصارت تتحاشى مقابلة محمد كالموت، وحين علمت من أمها عزمه على خطبة إحدى زميلاته في الإسكندرية شعرت بنيران الغيرة تأكل قلبها، كان الفضول يمزقها لترى تلك الـ «...» التي فضلها عليها، وفي أول زيارة للعروس إلى منزل أهل خطيبها وقفت مها خلف الباب تراقبها، لم تكن على قدر كبير من الجمال، فتاة عادية، ما الذي جذبه إليها؟ كادت تجن، جلست أمام الحاسب وأقدمت على تصرف ستندم عليه كثيرا لاحقا.

- رأيت خطيبتك، ليست جميلة، ما الذي تملكه ولا أملكه لتفضلها علي؟

وجاءها الرد مختصرا قاتلا:

- قلبي، واحترامي.

بالطبع لم يخاطبها محمد بعدها مطلقا، سواء على الإنترنت أو في الواقع، حتى في حفل زفافه لم ينظر إليها، لا تعرف هل أخبر أحدا بهذه المحادثات أم لا، وبشكل ما لم يعد يعنيها الأمر كثيرا بعد فترة، وبدأت رحلتها الدؤوب في العالم الافتراضي، من غرفة محادثة إلى أخرى، حين بدأت حمى «فيسبوك» في الانتشار كانت مها من أوائل من حملوا شعلتها، وشيئا فشيئا أصبح ذلك هو عالمها الحقيقي، أما الواقع فكان كابوسا يصيبها بالاختناق، في هذا العالم تشعر

أنها جميلة وذكية ولبقة، من العجيب حقا كيف تنساب الكلمات حين تختبئ خلف شاشة ولوحة مفاتيح، لا تشغل بالك بردود افعال او تعبيرات وجه أو لغة جسد، برعت مها في انتحال عشرات بل مئات الشخصيات، تعيش كل يوم حلما جديدا، هي البطلة، هي من تسن القوانين، تستمتع بذلك الإحساس بالأهمية، بالشعبية، ذلك الإحساس الذي لم تجربه في الواقع مطلقا.

maktabbah.blogspot.com

الفصل الثالث

تقطع الحافلة الطريق الصحراوي بسرعة متوسطة، من الجيد أن الخريف في نهايته ما يجعل الطقس معتدلا إلى حد كبير، من الغريب حقا أن يكون الخريف من أجمل الفصول في مصر، لا حر خانقا ولا سحب سوداء، لا خماسين ولا أمطار تحيل الشوارع إلى مستنقعات طينية، أميل برأسي على زجاج النافذة، أتذكر رحلتنا إلى المصيف على هذا الطريق إلى مطروح، أبي يقود السيارة، تجلس أمي بجانبه يستمعان إلى أم كلثوم، ويجلس محمد وحسام بجانبي يتشاجران كعادتهما البغيضة، بينما أطل من النافذة أراقب الطريق، تأخذني الذكريات إلى زمن آخر، أجلس بجانب محمود في سيارته نتجه إلى الإسكندرية، نستمع إلى فيروز وأنظر في المرآة إلى المقعد الخلفي وأتخيل أطفالنا وكيف ستبدو وجوههم، أمرر يدي في شعري لأفيق من هجوم الذكريات قبل أن تلتقط عيناي الإشارة وتبدآن في البكاء.

- هل أنت بخير؟

أنظر بجانبي لأجد ذلك المصور.

- ما الذي...؟ أين بسمة؟

يتنحنح في حرج:

- آسف، لقد بدلت مقعدها معي، هي التي بدلت المقعد والله ولست أنا.

أدير رأسي باحثة عن بسمة لأجدها تجلس بالفعل في مقعد آخر تتبادل حديثا مع أحد زملائنا، ويبدو أنها نسيت أمري تماما، والآن تركتني مع هذا الفنان الذي لا يعرف أحدا في هذه الرحلة سوانا، لا أفهم لماذا دعته في المقام الأول إلى رحلة خاصة بالعمل.

وكأنما قرأ أفكاري.

- يمكنني الجلوس بجانب السائق إذا كان وجودي يسبب لك الضيق.

أود أن أخبره بعبقرية هذا الاقتراح، لكن سأبدو غاية في قلة الذوق، لذا تصنعت اللامبالاة.

- ليس لهذه الدرجة، هذه ليست حافلتي الخاصة على أي حال.

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

- من الغريب أنك وبسمة صديقتان.

- وما الغريب في ذلك؟

- لستما متشابهتين على الإطلاق.

- ومن أفتى بوجوب التشابه بين الأصدقاء ليصيروا كذلك؟

- أوليس المرء على دين خليله؟

- أنت تفسر المقولة حرفيا، معنى ما تقول أنه إذا كنت أحب البرتقال وأنت تحب البطيخ فلا سبيل لأن نكون أصدقاء!

- بطيخ! أولا هذا حديث شريف وليس مقولة، ثانيا، لا علاقة للأكل بالموضوع، أنا أتحدث عن الطباع.

- وماذا تعرف عن طباعي أو عن طباع بسمة لتحكم على صداقتنا؟ مع احترامي، منذ أسبوع مضى لم أكن أعرف شيئا عن وجود شخص يدعى يوسف توفيق في الحياة.

- فاروق، يوسف فاروق، ترين؟ هذا ما أتحدث عنه، أنت نسيت اسمي على الرغم من عملنا معا طيلة الأسبوع الماضي، بسمة على النقيض، هي تعرف كل شيء عني وتتذكره جيدا من أول مقابلة.

- بالطبع، لأن هذا عملها.

- ومهارة شخصية كذلك، هي إنسانة اجتماعية بالدرجة الأولى.

- ومرة أخرى، هذا ما يجعلها ناجحة جدا في عملها.

- ربما، لكن...

أقاطعه قبل أن يسترسل:

- هل تعلم كم تبقى من الوقت على وصولنا؟

- حوالي ساعة ونصف الساعة.

- عظيم! سأنام قليلا، أيقظني عندما نصل من فضلك.

أقولها وأتثاءب، أعدل من وضع مقعدي ليناسب وضعية النوم وأريح رأسي

على النافذة مغمضة العينين، لا يدرك الأخ يوسف أنني حقا سئمت المقارنة المستمرة بيني وبين بسمة والتساؤلات المصحوبة بالدهشة عن كوننا صديقتين، لا أحد يعرف كيف بدأت هذه الصداقة، وليس من شأن أحد أن يعرف.

***

- أريد أن أسمي مولودنا الأول «يوسف».

- لا أحب هذا الاسم.

- لماذا؟ إنه اسم جميل.

- لدي صديق اسمه يوسف وهو أبله تماما.

- سيكون ولدنا رائعا، لا تقلق.

- سيكون رائعا لأنك أمه.

***

- منذ متى تنامين في أثناء السفر؟

تقولها بسمة وهي تتصفح هاتفها.

- أين نحن؟

أتساءل بكسل وأعتدل في مقعدي.

- على وشك الوصول، ما رأيك في يوسف؟

- رأيي من أي ناحية؟

- كل شيء.

- لا أرتاح لتساؤلك ولا لدعوتك له، توقفي عن مشروع «توفيق رأسين في الحلال» الذي تمارسينه مؤخرا معي.

تضحك ضحكتها المتقطعة وهي تنظر باهتمام إلى الهاتف، مهلا، هذا هاتفي.

- هل هذا هاتفي؟

تومئ برأسها إيجابا من دون أي شعور بالذنب، فأخطف الهاتف من يدها.

ـ سأضع له كلمة سر.

تضحك مرة أخرى.

ـ سأعرفها، على أي حال أنا أحاول أن أكون صديقة جيدة، ثم أنا أعتقد أنه مناسب لك، أنت تحبين ذوي العوينات الطبية، و...

ـ حمدا لله على السلامة، وصلنا.

يقولها السائق وهو يوقف الحافلة، ويوقف بسمة عن الاستطراد في هذا الموضوع الممل، أنا أتفهم تماما شعورها، لكنها لا تدرك أنني غير مستعدة إطلاقا لاستقبال أي رجل في حياتي تحت أي مسمى حاليا، وقد يكون أبدا.

نبدأ في النزول من الحافلة لتبدأ رحلتنا، ستذهب الحقائب إلى الفندق بينما سنذهب نحن إلى بلدة القصر القديمة، هذه أول زيارة إلى الواحات في حياتي، وهو أمر يدعو للأسف، فالمكان أكثر من رائع، يبدو أن بسمة كانت محقة بشأن الحاجة إلى التغيير، ساعدنا الطقس الخريفي على الاستمتاع بالتجول في البلدة ثم اتجهنا بعدها إلى البحيرة المالحة، جلس الجميع يتناولون طعام الغداء بينما ابتعدت لأستمتع بالوحدة قليلا، ولكنني لم أستمتع بالقدر الكافي، ظهر يوسف من العدم وجلس بجانبي وبدأ في الثرثرة:

ـ ما الذي يحزنك إلى هذا الحد؟

ـ عفوا؟

ـ أنا لا أقصد التطفل.

ـ ولكننك تتطفل.

يبدو الضيق على ملامحه فأشعر بالحرج.

ـ آسفة، أنا لم أقصد، كانت تلك قلة ذوق مني.

ـ بالتأكيد.

يرتفع حاجباي باستنكار، فيبادرني قائلا:

ـ هكذا نحن متعادلان.

رغما عني أضحك.

- «ضحكت يبقى قلبها مال»

يغنيها ضاحكا، فأهز رأسي متعجبة.

- أنت رائق حقا.

- لماذا تعتقدين هذا؟

- أنت تبدو بلا هموم، تعمل ما تحب، وتبدو علاقة الحب واضحة بينك وبين الكاميرا.

- لا تحكمي على الكتاب من غلافه يا فتاة، ألم يخبروكِ بهذا من قبل؟ على أي حال أصبتِ في حبي لما أعمل، أنا بالفعل عاشق للتصوير، لكن هذا ليس العمل الذي أرجوه، كنت أفضل عملا يدر دخلا ثابتا محترما يمكنني من الإنفاق على أسرتي بلا قلق.

- أسرتك؟

- هذا هو الشيء الآخر، أنتِ تتخذين موقفا عدائيا مني ظنا منك أنني أحاول جذبك أو التقرب منك، معك حق طبعا فأنا لا أقاوم.

يقولها بعبث وهو يعدل من عويناته.

- إذن أنت لا تحاول أن...؟

- أنا لا أحاول أي شيء مما يجول في خاطرك، أنا فقط أحاول أن أكون صديقا، ربما.

- ومن قال إنني بحاجة إلى صديق؟

- لا أحد، ربما لا تحتاجين، لكنني منذ رأيتك في المصعد وأنا أشعر بالفضول فقط، تبتسمين بطريقة غريبة وكأنك على وشك البكاء.

- أنت تراقبني إذن؟

- ليس بالضبط، هي تفاصيل قد لا يراها كثيرون، لكن صدقيني يا آنسة سارة حين تعتادين على رؤية العالم من عدسة الكاميرا، ستتفاجئين بكم التفاصيل

التي ستظهر لك جلية، إذن هل ستخبريني بما يحزنك؟

- ربما، أخبرني أولا، ما موضوع أسرتك هذا؟

- حسنا، أنا متزوج وأعول، هكذا يقولون، أليس كذلك؟

ارتفع حاجباي في دهشة، إذن فيوسف متزوج، وأب كذلك، بشكل ما أشعر أنني أرتاح إليه أكثر الآن، هذا رجل لا خطر منه، إلا إذا كان خائنا كاذبا، لكنني لا أعتقد أنه من هذا الطراز، لأن غالبية الذين قابلتهم من هذا الطراز مؤخرا يتجهون لا شعوريا إلى بسمة، من لا يهتم بجمال بسمة هو إما مخبول وإما أنه يحب حقا.

- تعول؟

- أجل، لدي أميرة صغيرة، مريم.

يقولها وهو يفتح هاتفه ليريني بضع صور لها.

- ما شاء الله، ملاك صغير.

- بالفعل.

- لكن اعذرني، لا يبدو عليك أنك رب أسرة.

- أنت لست من هؤلاء الذين يعتقدون أن كل رب أسرة يجب أن يكون موظفا يحمل البطيخة ويقرأ الأهرام، أليس كذلك؟

رغما عني أضحك، لكنني بالفعل أعتقد أن عبارة «رب أسرة» لا تليق بشاب يرتدي الجينز والعوينات الطبية ويحمل كاميرا على كتفه، حين أسمع هذا المصطلح فإن أول ما يتبادر إلى ذهني هو الراحل «حسين رياض» في فيلم «السبع بنات» أنت الآن تخبرني أنك في نفس الفئة التي ينتمي إليها حسين رياض الموظف الغلبان الذي يحاول إعالة بناته وتريدني أن «أبتلع» هذه المقارنة؟!

- بلى، يمكنك أن تقول إنني تقليدية جدا، لكن لماذا لا ترتدي خاتم الزواج؟

هز كتفيه وقال ببساطة:

- لا أحب ارتداء الخواتم.

- وزوجتك لا تشعر بالضيق؟

- لا، ترين يا آنسة سارة، أنا متزوج من صديقة عمري، اسمها رانيا بالمناسبة، هي تثق بي أكثر من ثقتها في قطعة من الفضة أو الذهب، وتدرك جيدا أن من يريد الخيانة أو اللهو لن يثنيه خاتم الزواج عن ذلك، إذا لم يثنه ضميره فلا أعتقد أن صاغة مصر مجتمعين يمكنهم المساعدة.

للمرة الأولى منذ زمن بعيد أشعر بالألفة في أثناء حديثي مع أحد الرجال، ورغما عني شعرت بالضيق، ليس حسدا، لكن مجرد تساؤل، لماذا لم يكن محمود هكذا؟ لماذا لم يكن فخورا بي وبحبي له هكذا؟ لماذا لم تكن بيننا هذه الثقة؟ وكأنما سمع أفكاري.

- لن أكذب وأقول إننا نعيش في جنة صغيرة، لدينا خلافاتنا - كأي زوجين - لكننا ندرك ما هو المهم وما هو الأهم، ثم إننا لم نعد اثنين، هناك مريم، وهذه الفاتنة الصغيرة لها الأولويتة المطلقة في حياتنا.

- بارك الله لكما فيها.

- آمين.

- إذن لماذا لم تحضرهما معك؟

- حاولت، لكن رانيا رفضت، لا تعتقد أن رحلة إلى الواحات قد تكون مناسبة لمريم حاليا.

في الساعات التالية صرنا أصدقاء، تحدثنا كثيرا عن أسرته وعمله، وأخبرته قليلا عن أسرتي وعملي، من بعيد كنت ألحظ بسمة وهي تنظر إلينا وتبتسم في جذل، مسكينة! كم أود رؤية وجهها حين تعلم أنه متزوج ولديه ابنة! كان يوسف طيبا بالفعل، يذكرني بحسام نوعا، ومرة أخرى يثبت لي «رجل» أنني لا أجيد الحكم على «الرجال»!

***

- لا يعجبني هذا الولد.

يقولها حسام بعصبية.

- هو ليس ولدا يا حسام، ثم لماذا تتخذ منه هذا الموقف العدائي؟

- سارة، أنا أكبر منك وأفهم في هذه الأمور أكثر منك، هذا الشاب لا يناسبك.

- فارق سنتين في العمر لا يجعلك أكبر مني لهذه الدرجة يا حسام، ثم إنك أقرب شخص لي في هذا المنزل، لهذا أطلب مساعدتك، أرجوك ساعدني في إقناع بابا به.

- وهذا أيضا، تعلمين جيدا أن حلم بابا هو رؤيتك عروسا، تعلمين أنه تشاجر مع محمد كثيرا عندما أعلن رغبته في الزواج قبل خطبتك على الأقل.

- وأنت تعلم أنني رفضت هذا المبدأ.

- هذه ليست الفكرة، الفكرة أنه طالما أراد أن يطمئن عليك، معنى رفضه لهذا الشاب أنه لا يشعر أن بإمكانه أن يطمئن عليك معه، صدقيني يا سارة، لدى الآباء إحساس في هذه الأمور نادرا ما يخيب.

- تتحدث مثل ماما يا حسام، أرجوك، هو شاب طيب ومحترم، وسيكون له مستقبل رائع، فقط امنحوه فرصة، ثم إنه طلب مقابلة بابا، هل كان سيأخذ هذه الخطوة إذا كان لعوبا أو غير جاد؟

- هذا ليس مقياسا في زمننا هذا، صدقيني هذا ليس مقياسا على الإطلاق.

أشعر بغصة من جراء هذا الظلم الفادح، لماذا لا يقف أحد بجانبي؟ حتى حسام الذي ظننت أنه سيكون معيني، لماذا لا يرون ما أراه؟ إذا استطاعوا النظر إلى محمود بعيني سيدركون ما يمثله وجوده في حياتي، سيدركون أنه الشخص الوحيد المناسب لي في الكون بأسره، لا يمكن أن يكون بهذا السوء، لا يمكن أن يكون حكمي على الأشخاص سيئا لهذه الدرجة التي يظنون، لا يمكن.

***

ألقي بجسدي على الفراش بعد جولة اليوم المرهقة، لم أعتد المشي كل هذه المسافة، يبدو أن الاعتماد الكلي على السيارة والالتصاق بمقعدي في العمل يوميا أصاباني بالشيخوخة المبكرة، تجلس بسمة على فراشها وتبدأ في الشكوى من سوء حالة الشبكة.

- أحسن!

أقولها بشماتة فتنظر لي باستنكار.

- يا سلام! ما هذه الفرحة يا سلطانة النكد؟

- اتركي هذه الأشياء من يدك قليلا، تحدثي معي.

- هذا عمل يا حلوة، .business

ثم تردف بخبث:

- ثم لا يبدو أنك لست بحاجة إلى الحديث معي.

- ماذا تقصدين؟

- يبدو أنك تشعرين بالانسجام التام مع مصورنا الهمام.

- هل هذا مطلع أغنية؟

أقولها بتهكم فتلتفت إلي.

- هيا أخبريني، ماذا قال لك؟

- تحدثنا، عن العمل، عن التصوير.

مطت شفتيها في خيبة أمل.

- عمل وتصوير؟

فأردفت بخبث:

- لا بالطبع، تحدثنا عن زوجته وابنته كذلك.

قفزت بسمة من فراشها كأنما لدغها عقرب، وانتقلت بطريقة سحرية إلى فراشي.

- ماذا؟ زوجته وابنته؟ تمزحين؟!

- لا، أستاذ يوسف متزوج منذ أربع سنوات بحبيبته رانيا، ولديه ابنة جميلة اسمها مريم.

- كيف فاتني هذا الأمر؟

- يبدو أن مهاراتك الاستخباراتية بدأت في التراجع يا بسمة.

- نحس!

قالتها وعادت إلى فراشها ثم أردفت:

- لماذا إذن لم تفارقيه منذ أن وصلنا؟

- للسبب ذاته، لا خطر منه.

تهز بسمة رأسها وهي تتخذ وضعية النوم.

- يجب عليك الخروج من حالة الحداد التي تفرضينها على نفسك يا سارة، مرة أخرى لن أتحدث معك إلا إذا رغبتِ في الحديث معي عن هذا الأمر، لكنني لا أحب ما تفعلين، العمر يمضي يا حلوة، هيا، لدينا يوم حافل غدا، تصبحين على خير.

تقولها وتغمض عينيها، فأستلقي على فراشي استعدادا للنوم بدوري، أجل يا بسمة العمر يمضي، لكن الحياة تقف ولا يصبح للعيش معنى أحيانا.

***

- لماذا تجلس صامتا هكذا؟

- أفكر.

- فكر بصوت عالٍ من فضلك، دعني أفكر معك.

- لن تعجبك أفكاري.

- جرب.

- حسنا، أريد أن أسافر، أبحث عن فرصة عمل خارج مصر، أحد أصدقائي يعمل في الإمارات، قد يساعدني.

- لماذا؟

- هل هذا سؤال؟ ألا ترين كيف أصبحت الحال؟ إذا بقيت هنا فلن أصنع أي شيء يذكر، لا سبيل إلى ذلك.

- دع هذا الحديث لشخص لا يحمل مؤهلك أو مهاراتك يا محمود، أنا أثق بك.

- أنا أتحدث بواقعية يا سارة، هذا ليس حديث عواطف، آلاف يحملون مؤهلي

بل وأفضل منه، ما قيمة بكالوريوس صيدلة في هذا الزمان؟ أنا لا أملك مالا لأفتح صيدلية خاصة بي، لا تتوقعي مثلا أن أعمل في مستشفى حكومي وأنتظر الـ٢٠٠ جنيه في آخر الشهر لأشتري بها ترمسا.

- ماذا عن شركات الأدوية؟

- مندوب مبيعات؟ أقبّل أيادي الأطباء لاستخدام منتجي، ويرتبط مرتبي بتحقيقي لهدف قد أصل إليه شهرا ولا أحققه شهورا؟

- لماذا تنظر إلى الموضوع بهذه السلبية؟

- قلت لك، اسمها واقعية، أفيقي يا فتاة.

- لكن إن سافرت، ماذا عني؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد، ماذا سأفعل حتى تعود؟

- سأسافر سنة واحدة فقط وأعود لخطبتك ثم أسافر مرة أخرى.

أنظر له بقلق فيبتسم ويضع يدي في يده.

- أنا أفعل كل هذا من أجلك، ثقي بي.

وللأسف وثقت.

***

في اليوم التالي استيقظنا مبكرين وغادرنا الفندق بعد الإفطار لنتجه إلى الصحراء السوداء، لم أتخيل وجود هذا السحر في مصر مطلقا! كيف لم أسمع عن هذه الأماكن من قبل؟ حملت هاتفي وبدأت في تصوير التلال السوداء الرائعة.

- تريدين دروسا في التصوير يا آنسة؟

يقف يوسف بجانبي ويحمل كاميرته ويبدأ في التصوير بدوره.

- لماذا يغفلون عن ذكر هذه الأماكن في الإعلام؟

- عم تتحدثين يا أختاه؟

يقولها بتهكم.

- أنا أتحدث بجدية، لماذا لم أعرف حتى اليوم بوجود صحراء سوداء وبيضاء وينابيع حارة وباردة ومحميات وحفريات وكل هذا في مكان واحد في مصر؟ أعني، أجل كنت أعرف بوجود بعض هذه الأشياء لكن...

يستدير يوسف ويجلس على الأرض ويدور برأسه في المكان.

- تعرفين؟ هذه ليست المرة الأولى التي آتي فيها هنا، جئت عشرات المرات، للتصوير في معظم الأوقات، أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها هذا السحر وأفهم ما تشعرين به، صدقيني هناك أماكن في مصر تخطف الأنفاس لكننا لا نعلم عنها شيئا، المشكلة أننا لا نحاول التعرف على بلدنا، نتحدث عن إسبانيا وفرنسا بانبهار القروي الساذج ولا نعرف عن البحر الأحمر إلا شرم الشيخ، هناك عشرات الشواطئ الخلابة على البحر الأحمر، هناك عشرات المدن على ساحل البحرين في منتهي الروعة، لكننا نظل نوعا ما عبيد العادة، اعتدنا الذهاب إلى الإسكندرية في الصيف إذن فهي الاسكندرية مدى الحياة، ماذا عن العريش؟ ماذا عن رأس البر؟ ماذا عن كبريت؟

- كبريت؟

- بالضبط، أنت لا تعلمين عنه شيئا، هو شاطئ في السويس على أي حال، منذ اكتشفنا فجأة وجود البحر الأحمر في مصر - سبحان الله - والكل لا يتحدث إلا عن شرم الشيخ، حاشا لله أن نذهب إلى مرسى علم مثلا.

أرفع رأسي لأرمق المشهد من حولي، بالفعل هناك مئات - إن لم تكن آلاف - الأماكن التي لا أعلم عنها شيئا في مصر، بالفعل نحن عبيد العادة، أنا واحدة من الناس فغرت فاهي دهشة حين أخبرتني بسمة بوجود رحلة إلى الواحات.

- بالمناسبة، هذه ليست المرة الأولى التي تسمعين فيها عن هذه الأماكن، لكنك لا تنتبهين، تلميذة فاشلة!

- لا أفهم.

- يبدو أنك مثل برامج الترجمة الآلية، النص الذي ترجمته الأسبوع الماضي كان يتحدث عن كل هذا، ألم أخبرك أنني مشترك في مسابقة للترويج للسياحة في

مصر؟

ـ حقا؟ لهذا أشعر أنني سمعت هذه الأسماء من قبل، لكن هناك فارقا كبيرا بين قراءة بعض الأسماء وبين ربطها بمكان رأيته بالفعل.

ـ عذرٌ أقبح من ذنب.

بدأ الرفاق في التجمع استعدادا للذهاب إلى المحطة التالية من الرحلة، إذ سنخيم في الصحراء البيضاء، أشرت إلى يوسف بالتحرك.

ـ هيا يا علّامة الجغرافيا، سنغادر.

نهض يوسف وحمل الكاميرا على كتفه، واتجهنا إلى الحافلة.

ـ تعلمين؟ أنا لا أحاول التحذلق، أنا بالفعل أحب هذه الأشياء، أحد أحلامي المؤجلة هو أن أكون مصورا في «ناشيونال جيوغرافيك» مثلا.

أبتسم وأنا أجلس في مقعدي.

ـ من الجميل أن يكون لديك حلم كبير، لكنك كثير الكلام بالمناسبة، هلا صمت قليلا؟ لا أعرف كيف تتحمل رانيا هذه الثرثرة المتواصلة، كان الله في عونها.

يضحك وهو يحرك كفه على فمه في إشارة للصمت المطبق، أرمق بسمة تتحدث في الهاتف بحماس من الواضح أنه يتعلق بصفقة ما أو عميل «ثقيل» هذه الفتاة ستكون سيدة أعمال حديدية يوما ما، أدير وجهي إلى النافذة وأتمتم.

ـ أجل، جميل حقا أن يكون لديك حلم كبير.

***

ـ بماذا تحلمين يا حبيبتي؟

ـ ماذا يعني الحلم؟

يحملني أبي على كتفه ويتجه إلى البحر.

ـ الحلم، هو شيء تريدينه بشدة يا سارة.

ـ كالشيكولاتة مثلا؟

يضحك أبي ضحكة عالية يرقص معها قلبي.

- لا، هذا ليس حلما، الحلم هو شيء لا تملكينه بعد لكنك تريدين ذلك، وستفعلين أي شيء لتحقيقه.

- لا أفهم.

أزم شفتيّ وأسند رأسي إلى رأس أبي، لا أفهم ما يقول، ولكنني أريد الشيكولاتة بشدة، يربت أبي على رأسي، هو يدرك أنني لا أفهم ما يرمي إليه.

- انظري يا سارة إلى هذا البحر، كم هو كبير.

أرفع رأسي لأرمق بحر مطروح الفيروزي الممتد في الأفق، أحبه بشدة ولا أفهم لماذا لا يوجد مثله أمام منزلنا.

- كبير جدا.

- حين تحلمين يا أميرتي، يجب أن يكون حلمك كبيرا مثل البحر.

أنظر إلى البحر مرة أخرى، يبدو كبيرا جدا، واسعا جدا، ومخيفا جدا، لكن وجود أبي يمنحني الأمان، يمنحني القوة، سأفعل ما يقول، سأحلم حلما كبيرا مثل البحر، وسأحققه.

***

- إلى أي مدى تحبينني؟

- أحبك مثل البحر.

- لماذا البحر بالذات؟

- لأنه أكبر شيء رأيته.

***

بعد جولة مبهجة في الصحراء البيضاء بدأنا في التخييم استعدادا للمبيت في الصحراء هذه الليلة، هي المرة الأولى التي أقضي فيها ليلتي في خيمة، لكنني غير قلقة، لقد قضيت ليالي عدة على سور شرفتي، ولا أعتقد أن الأمر سيكون بهذا السوء، رفيقتي في الخيمة هي بالطبع بسمة.

- لم أتصور أن المكان هنا بهذه الروعة.

أقولها وأنا أرتب مكان نومي بينما تجلس بسمة تصفف شعرها.

- هو جميل بالفعل لكنني لست من هواة الصحراء، أفضّل المدن الكبيرة.

- لم يطلب منك أحد العيش هنا يا سمو الأميرة.

أقولها وأنا أندس بين الأغطية.

- ماذا تفعلين؟ سيقيمون حفل عشاء بدوي حول نار المخيم، ألن تنضمي إلينا؟

- لا أعتقد، أشعر بإرهاق شديد وأريد النوم.

- أنت في غاية الملل.

تقولها وهي تلوح بيدها وتغادر الخيمة، بينما أحاول أن أسترخي تماما طلبا لبعض الراحة. في الخارج أسمع الأصوات العالية والضحكات تغريني بالانضمام إليهم لكنني بالفعل مرهقة، وربما أنا في غاية الملل كما قالت، كيف عرفتها؟ كنا معا في المدرسة الثانوية، بسمة وأنا، لكننا لم نكن صديقتين، لم يكن لدينا حتى أي أصدقاء مشتركين، لم تختلف بسمة كثيرا اليوم عن بسمة الأمس، الفتاة الجميلة الاجتماعية التي يحبها ويخشاها الجميع في نفس الوقت، أمينة اتحاد الطلاب ومنسقة جميع حفلات المدرسة، بينما كنت أنا، أنا! طالبة مجتهدة تحاول الحصول على مجموع كبير لدخول كلية من كليات القمة كما يقولون، وكان هذا كل ما يشغل تفكيري، لكن هذا لا يلغي حقيقة أنني كنت أغار من بسمة، من شعبيتها، من تألقها، ولست وحدي من راودها هذا الشعور، تلك السن اللعينة كانت تؤجج جميع المشاعر سواء كانت إيجابية أو سلبية، لكنني بالطبع لم أعترف بذلك.

كانت لدي صديقة واحدة في المدرسة هي مها، جارتي، كنا صديقتين مقربتين حتى وقت ليس ببعيد، لكنها قررت الابتعاد لاحقا لأسباب لم أفهمها، الحق إنني لم أكن في مزاج يسمح بتفسير تصرفات صديقة مجنونة، كان محمود يذيقني من الجنون ألوانا وقتها، على أي حال، كانت مها تغار من بسمة حد المرض، بشكل ما، كانت بسمة تجسيدا لكل ما تمنته مها ولم تنله.

يوما ما لم تعد هناك بسمة، لقد انتقلت إلى مدرسة أخرى فجأة، لم ندر ماذا حدث، تناثرت الأقاويل والشائعات كالعادة والكل يتحدث وكأنه العالم ببواطن

الأمور، بينما تظل الحقيقة واحدة، لا أحد يعرف ماذا حدث. جاءت الامتحانات سريعا ونسينا كل شيء عن بسمة واختفائها الغامض. مرت مذبحة الثانوية العامة وحصلت بالفعل على مجموع كبير لألتحق بكلية الألسن التي رغبت دوما في الالتحاق بها، بينما التحقت مها بكلية التجارة وبدأت طرقنا في التباعد تدريجيا.

بعد سنوات التقيت ببسمة مصادفة في حفل تخرج حسام، كنت أقف في أحد الجوانب ألتقط الصور فوقفت بجانبي.

- أنا أعرفك، كنتِ معي في المدرسة.

- حقا؟ أعني أجل كنا معا في المدرسة لكنني لم أظن أنك تعرفيني.

- أنا أعرف الجميع يا فتاة، لا أنسى وجها مطلقا، لكن الأسماء قد تتسرب من ذاكرتي.

- سارة وصفي.

- بسمة عبد الكريم، ماذا تفعلين هنا إذن يا سارة؟

أشير بيدي.

- ترين هذا الشاب الرائع هناك؟ هذا أخي حسام، وهذا حفل تخرجه، ماذا عنك؟ هل جئت مع أحد؟

- لا، أنا من نظم هذا الحفل.

تقولها ببساطة تحسد عليها.

- تمزحين؟

- لا، أنا بالفعل من فعل ذلك.

تضع يدها في حقيبتها وتناولني بطاقة.

- هذه بطاقتي، إذا أردت تنظيم أي حفل، رحلة، أي شيء من هذا القبيل اتصلي بي، بالطبع يمكنك إخبار أصدقائك بذلك.

أنظر إلى البطاقة التي وضعتها في يدي، وقبل أن أرد تتركني لتواصل حملتها الدعائية في المكان. كنا لا نزال طلبة في الجامعة، لذلك أصابني نوع من الدهشة

الممزوجة بالإعجاب، ما دفعني لاحقا إلى البحث عن أي مناسبة اجتماعية لأقحم اسم بسمة وأثني على مهاراتها التنظيمية. وهكذا ولدت صداقتنا، وتوطدت كثيرا عند وفاة أبي، وهي من ساعدتني للالتحاق بالعمل في الشركة، الحق إنني لا أعرف الكثير عن حياة بسمة الخاصة على الرغم من معرفتي بها طوال هذه الأعوام، لكنني أعرف جيدا أنني يمكنني الاعتماد عليها دوما، وأنها لن تخذلني.

***

في كثير من الأحيان نحتاج إلى وقت مستقطع من كل ما يحيط بنا، من عملنا، من أهلنا، من حياتنا برمتها، لكن بسمة لم يراودها هذا الشعور من قبل، لا يمكنها الحصول على وقت مستقطع وإلا ستخسر وقتا ثمينا في التفكير والتحسر على ما لا يفيد، هكذا عرفها الجميع، الفتاة العملية التي لا تضيع ثانية واحدة من دون الحصول على مكسب من أي نوع، تشعر بقوتها حين ترى ذلك الإعجاب المشوب بنوع من الحذر في عيون من حولها، لديها هدف في الحياة وستصل إليه بأي ثمن، بسمة، من يعرفها حقا؟

تجلس بسمة أمام المرآة تمشط شعرها الأحمر الطويل، تدرك مدى جمالها وتعرف جيدا أنه أحد نقاط قوتها، منذ صغرها وهي تعرف أن صاحب الوجه الأجمل يمكنه الإفلات من أي شيء، لم يكلفها الأمر إلا العبوس وترقرق الدموع في عينيها الزرقاوين لتفلت من عقاب أبويها ومدرسيها في ما بعد، انتبهت الصغيرة إلى أنهم يضعونها دوما في المقدمة، في طابور المدرسة، في الفصل، في المسابقات، في الحفلات، في الصور التذكارية، على الرغم من أنها لا تكون الأكثر استحقاقا. هكذا تعلمت درسها الأول مبكرا، سوف يرددون دوما أشياء حول أهمية الجوهر والمضمون لكن عند الجد سيبحثون عن الشكل المناسب، هناك الكثير من النكات التي سمعتها طيلة حياتها عن هؤلاء الذين يطلبون سكرتيرات لبقات يجدن العمل ويتحدثن بضع لغات، لكن دوما تحصل على العمل تلك التي ترتدي التنورة الأقصر!

مع ذلك كانت بسمة ذكية، لم تهمل دراستها وتنمية قدراتها اعتمادا على مظهرها فقط، كانت تدرك أنه ليس لديها من تعتمد عليه في هذه الحياة سوى نفسها، منذ انفصال والديها وهي تعي هذه الحقيقة جيدا.

- الحياة معك لم تعد تطاق!

تصرخ أمها وهي تشيح بوجهها عن زوجها الذي يهدر بدوره:

ـ عن أي حياة تتحدثين؟ هل تسمين هذه حياة؟

تنكمش الصغيرة في أحد الأركان وهي تشاهد مباراة الصراخ والاتهامات المتبادلة للمرة المليون، وكالعادة يغادر الأب المنزل، بينما تتجه الأم إلى غرفتها لتذرف مزيدا من الدموع من دون الالتفات إلى الصغيرة الملقاة بين الأثاث، تبكي بسمة في مكانها حتى تنام، يعود الأب في وقت متأخر ولا يهتم بالاطمئنان على الطفلة أو معرفة كيف كان يومها بعد العاصفة، تستيقظ الطفلة محطمة العظام من أثر النوم على الأرض، تبكي من الألم وتتجه إلى غرفة أمها تبحث عن بعض الطمأنينة في حضنها، تضع يدها على كتف أمها المستغرقة في النوم.

ـ ماما.

تقولها بصوت مرتعش باك، وهي تربت على كتف أمها فلا تجد ردا، فتكرر الكرة بصوت أعلى،

ـ ماما.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أنا جوعانة.

ـ اذهبي إلى أبيك.

تتركها بسمة وتتجه إلى الباب، تشب على قدميها لتفتحه وتتجه إلى جارتها لتطعمها كما اعتادت في مثل هذه الظروف. لم يستمر هذا الوضع المزري طويلا، انفصل الأبوان في أقرب فرصة ولم يتنازعا بالطبع بشأن من سيحصل على حضانة الطفلة، لذا انتهى بها الأمر مع جدتها. هكذا تعلمت الصغيرة أنها لا يجب أن تعتمد على أحد مطلقا، فالكل في النهاية سيخذلها.

تجلس بسمة شاردة تراقب أطفال الجيران وهم يلعبون أمام منزل جدتها، تقترب الجدة منها وتحملها.

ـ هل تريدين اللعب معهم؟

ـ أنا لا أعرفهم.

ـ لا يهم، ستعرفينهم إذا لعبتِ معهم، لكن إذا وقفتِ هنا تنظرين فقط فلن

تعرفيهم أبدا، أليس كذلك؟

- قد لا يحبونني يا جدتي.

تحتضنها جدتها بقوة.

- لا يمكن ألا يحبك أحد يا بسمة، أنت جميلة الوجه والقلب أيضا يا عيون جدتك.

- لكن بابا وماما...

- هما غبيان، وستقابلين في الحياة أغبياء مثلهما كثيرا، لا تبالي بأمرهم، هيا، سأصطحبك إلى أصدقائك الجدد.

تضعها جدتها على الأرض وتهبطان الدرج، تتشبث الطفلة ذات الستة أعوام بيد جدتها، يكاد قلبها الصغير يتوقف خوفا، تقف الجدة أمام الباب وتنادي على الصغار.

- هيا يا أولاد قابلوا حفيدتي بسمة، صديقتكم الجديدة، جاءت تلعب معكم وأحضرت لكم جميعا حلوى.

تضع الجدة يدها في جيبها لتخرج مليئة بالحلوى، فيهرع إليها الأطفال يختطفون الحلوى ويرحبون ببسمة ويدعونها إلى اللعب معهم، تنظر بسمة إلى جدتها بفرحة وتترك يدها وتجري لتلعب مع باقي الصغار، في ذلك الزمن كانت الطفولة أبسط كثيرا مما هي عليه الآن، كان اللعب أمام المنزل أمرا عاديا، لم تكن مصطلحات مثل «اختطاف الأطفال لبيع أعضائهم» و«متحرشي ومغتصبي الأطفال» وما إلى ذلك من القاذورات التي انتشرت حاليا - معروفة في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أن يتجمع الأطفال للعب معا طوال النهار، لا أن يتحولوا إلى أجولة بطاطس تلتصق بمقعدها أمام جهاز إلكتروني طوال اليوم، على أي حال تعلمت بسمة الكثير من جدتها، وأهمها أن الفرص لن تأتي إليها، عليها خلق الفرص ثم اقتناصها.

***

ننهض في الصباح الباكر لنغادر المخيم وننطلق إلى العين السحرية وجبل الكريستال، يومنا الأخير في الرحلة، يبدو أنني نمت كالموميا لأنني لم أشعر بأي شيء، لم أشعر حتى بعودة بسمة إلى الخيمة، ولكن على حسب كلامها يبدو

أنني قد «فاتني نصف عمري» تناولنا طعام الإفطار وبدأنا في التحرك، لم ألمح يوسف منذ الصباح توقعت أن يهبط علينا كنيزك من السماء ويبدأ في الثرثرة لكن لا أثر له، فألتفت إلى بسمة لأسألها:

- أين يوسف؟

- لقد غادر أمس، ألم يخبرك؟

- غادر؟

- أجل، قال إن أمرا ما قد طرأ في القاهرة وعليه العودة، وشكرني على دعوته ثم عاد إلى الفندق.

- متى حدث ذلك؟

- في أثناء العشاء أمس.

- غريب.

- تقولين إنه متزوج ولديه طفلة، ربما حدث شيء ما في المنزل، الأطفال يهوون المرض وبخاصة عند تبديل فصول السنة، على أي حال لم تعرفي الفتي إلا منذ يومين يا سارة، لستِ ولية أمره.

معها حق لكنني لا أرتاح لهذه العودة المفاجئة، لا أحب أن يوجد الأشخاص ثم يختفون فجأة هكذا، يذكرني هذا الأمر بشيء.

- بسمة.

- ها؟

- تذكرين مدرستنا؟

- بالطبع.

- لماذا تركتها فجأة؟

تصمت بسمة وتتبدل ملامح وجهها.

- أنا آسفة، لم أقصد التدخل في...

تلوح بكفها.

- كفي عن السخف، أنت صديقتي، كل ما في الأمر أنني أحزن كلما تذكرت الماضي لذلك لا أحب التفكير فيه.

- من منا لا يحزن عند ذكر الماضي؟

- لذلك لا أحاول تذكره، ترين يا سارة، أنا لا أحب الحزن، أنا لم أبك منذ كنت في السادسة من عمري إلا مرة واحدة فقط، ولن أبكي بعدها مطلقا.

- لكن، البكاء ليس سيئا طيلة الوقت، في كثير من الأحيان يكون تفريغا لشحنة مشاعر سيئة.

- بالتأكيد، لكن لكلٍ منا طريقته في تفريغ هذه الشحنات.

- هل تغيرين الموضوع لتتهربي من الإجابة على سؤالي؟

تبتسم ابتسامة ماكرة.

- يا إلهي! صغيرتي سارة كبرت وأصبحت تفهم يا ناس!

- يا سلام!

تضحك ضحكتها المعتادة ثم تريح رأسها على المقعد، وتشرد قليلا.

- ماتت جدتي، كنت أعيش معها ثم ماتت فانتقلت للعيش مع خالتي في حلوان، واضطررت إلى التحويل من المدرسة إلى مدرسة أقرب.

- رحمها الله، أنا آسفة.

- لا عليك، رحم الله الجميع.

تتوقف الحافلة فنبدأ في النزول، ثم الانقسام إلى مجموعات صغيرة لاستكشاف العين السحرية، أرمق بسمة وهي تضحك وتثرثر مع بعض زملائنا وأسرهم، «ما هذه القوة يا فتاة؟» أتمتم بها ولا أخفي إعجابي، كل منا صندوق مغلق على ما فيه، كل منا يتكيف مع أوجاعه بالطريقة الأنسب، من رحمة الله أن ندبات الروح لا تظهر للعيان وإلا صرنا جميعا مسوخا تسير على قدمين.

الفصل الرابع

تلتصق مها بمقعدها أمام الحاسب تتقمص تفاصيل شخصية جديدة تأخذها بعيدا عن نمطية حياتها التي تمقتها، تضع سماعات الرأس لتتحاشى الاستماع إلى اعتراضات أمها المتكررة، إلى نداءات أختيها للمساعدة في أعمال المنزل، إلى اقتراحات أبيها بالخروج والبحث عن عمل، لا تريد المزيد من النصائح والمواعظ، لا تريد المزيد من المقارنات بينها وبين أختيها أو بينها وبين سارة، لا تريد أي شيء إلا أن يتركها الجميع في عزلتها الاختيارية وينسوا أمرها تماما. تتحرك أناملها على لوحة المفاتيح بسرعة، تعليقا هنا، ومحادثة هناك، الحياة الافتراضية باختياراتها الرائعة، تضيف شخصا بنقرة وتحذفه من حياتك بنقرة، تسأم من شخصيتك فتنشئ صفحة شخصية مزيفة تضع فيها كل ما تمنيت أن يكون لديك بالفعل، لا تعجبك ملامحك، لا داعي لجراحات التجميل، الأمر لا يتطلب إلا مهارة التعامل مع «فوتوشوب» أو أي برنامج لتعديل الصور، ومها كانت تعشق هذه الاختيارات التي تمنحها قوة وتحكما لم تجربهما في حياتها المملة من قبل، والأجمل أنها تمنحها أملا في العثور على «حالة» الحب التي تبحث عنها باستماتة، هي لا تكذب، هي فقط تتجمل.

كل مرة يبدأ الحديث بنفس الطريقة:

ـ هاي (لسبب ما تكون دوما هاي، ليس أهلا أو مرحبا، لا بد من أن تكون هاي) أنا «...» من مدينة نصر، ممكن نتعرف؟

ولنفس السبب الغامض جميع من يحاولون التعرف عليها يكونون إما من «مدينة نصر» وإما «المعادي» لم تقابل حتى الآن بعد كل تلك الأعوام من يكون من «نبروه» أو من «الصالحية» مثلا، بطريقة غامضة تحولت جمهورية مصر العربية إلى محافظة واحدة ثم تقلصت إلى منطقتين كل من بها يعمل ـ سبحان الله ـ مهندسا ويجلس على الإنترنت ٢٤ ساعة يحاول التعرف على فتاة ما، يتحدث معها ٣ دقائق فيكتشف أنه «ارتاح» لها وأنه يشعر أنه يعرفها منذ فترة طويلة... إلخ، ثم يأتي السؤال الإجباري:

ـ هل من الممكن أن أرى صورتك؟

يجب أن يطمئن «الباشهمندس» على مصير الساعات المقبلة في حياته، كانت مها في البداية عديمة الخبرة ترسل صورتها الحقيقية فيختفي المتحدث في

ظروف غامضة أو يعتذر لأن «صديقي تحت البيت يجب أن أنزل» لكنها الآن صارت محترفة، تماطل قليلا ثم ترسل صورة معدلة وأحيانا ترسل صورة أختها الصغرى، فتحصل على الاستجابة المرجوة.

- مثل القمر، لكن لماذا هذا الحزن البادي في عينيك؟

لا بد من «الحزن البادي في عينيها الجميلتين» كي تبدأ الدراما، حتى وإن كانت الصورة لها في حديقة الحيوان وهي تطعم الزرافة وتبتسم في بلاهة، لقد صارت هذه هي القواعد وصارت هي عليمة بها، ثم الطلب المقدس:

- هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟

وذلك لأن «الباشمهندس» قد يكون مشغولا في عمله في الموقع ولا يستطيع محادثتها على الإنترنت فيكون البديل متوافرا، قد يجعلك هذا تتساءل، إذا كان هذا مهندسا مشغولا بالفعل، أين يجد الوقت للمحادثات الهاتفية والنصية طوال الليل والنهار؟ وإذا كان ناجحا إلى هذا الحد فلماذا لم يتزوج حتى الآن؟ وإذا كان بهذه الجاذبية والرومانسية فلماذا لم يجد نصفه الآخر في الواقع وقرر البحث عنها بين أسماء مستعارة تشي بالسطحية المطلقة من نوعية «أميرة الشجن» و«الملاك الحزين»؟ لكن مها لم تكن تطرح مثل هذه الأسئلة، بل كانت تتحاشى التفكير المنطقي بأي ثمن، ذلك لأن المنطق كان ينافي وبشدة كل ما تفعله.

منذ أيام تعرفت على أحدهم في إحدى غرف المحادثة الشهيرة، «أيام» في غرف مدمني الإنترنت تعني أنهما تقريبا تربيا معا، وللمرة الألف تقنع نفسها أنه فارس أحلامها، إنه يحب محمد منير ويمارس السباحة وهذا يجعله شخصا رائعا، بغض النظر عن أنها لا تحب محمد منير ولا تستطيع السباحة.

- أشعر أنني أعرفك من قبل، أحب الحديث معك.

- وأنا أيضا.

- هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟

- بالطبع، لكن لن أستطيع الرد في كل الأوقات.

- مفهوم، لا بأس، سنتحدث عبر الرسائل الفورية.

وهكذا، ساعات متواصلة من المحادثة وتبادل الصور والأغاني ثم...

- أريد أن أراكِ.

- أنت رأيتني، رأيت الصور.

- لا، أريد أن أقابلك.

- لكن...

- أرجوكِ، مرة واحدة فقط، أريد أن أراك وجها لوجه.

- أنا لا أخرج كثيرا.

- ٥ دقائق فقط هذا كل ما أطلبه، أرجوكِ.

تجد مها نفسها في نفس المأزق بعد أيام من الحلم، تماطل قليلا، تتعلل بحجج واهية، ثم تذهب إلى الموعد ويختفي الحبيب المجهول بعدها للأبد، يتكرر الموقف بحذافيره في كل مرة، وكل مرة توهم نفسها بأن المرة المقبلة هي المرة التي ستجد فيها ضالتها، وتبدأ في إنشاء صفحة جديدة بشخصية جديدة وتنتظر الفارس الجديد.

***

٣ أيام رائعة قضيتها في الواحات قبل العودة إلى الزحام والضوضاء والضغوط، لكنني افتقدت المنزل وماما وحسام كثيرا، أدلف إلى المنزل محدثة أكبر قدر من الجلبة.

- حمدا لله على السلامة.

تقولها أمي من المطبخ، فأضع الحقائب أرضا وأركض إليها لأنعم بحضنها قليلا.

- ما كل هذه العواطف الجياشة؟

- افتقدتك يا ست الكل.

تضحك ماما وهي تقبلني.

- إذا كانت هذه هي النتيجة فلا بد من أن نرسلك إلى الصحراء كل خميس وجمعة.

- تريدين التخلص مني؟

- يا رب.

أعلم أنها ترمي إلى التخلص مني عن طريق الزواج، لذلك أدير دفة الحديث بسرعة قبل أن يتحول الجو الربيعي بيننا إلى عواصف رعدية.

- أين حسام؟

- في العمل.

- إذن لماذا تقفين في المطبخ منذ الآن؟

- لدينا ضيوفا اليوم.

تصيبني هذه الكلمة بتقلصات معوية تذكرني بيوم نتيجة الثانوية العامة، لذا أردد في ريبة:

- ضيوف؟

- محمد وصفاء.

أتنفس الصعداء وأغمغم «الحمد لله» فترمقني بنظرة نارية، يبدو أنها سمعتني! لا بد من الهرب بأقصى سرعة الآن.

- حسنا يا منى، سأغتسل وأنام قليلا.

أقولها وأغادر المطبخ.

- ضعي ملابسك في الغسالة أولا.

كنت أعلم أنها لن تتركني بسهولة.

- وأنت من أهل الخير يا ماما.

***

تجلس صفاء في الشرفة ترمق البحر، لم تقابل في حياتها بعد ذلك الشخص الذي لم يقع في هوى الإسكندرية من أول نظرة، الإسكندرية الجميلة وبحرها الذي يفيض بالأسرار، كم جلست أمامه وأفرغت ما بصدرها، ما تخشى قوله بصوت عالٍ، ما لا تريد أن تحكيه لبشر، مهما كان قريبا منها، فالبحر يستمع ولا

يقاطع، لا يصدر أحكاما، يستمع فقط، وهي بحاجة إلى من يستمع فقط.

٣ سنوات تنتظر اليوم الذي تشعر فيه بدبيب الحياة داخلها، ٣ سنوات من الطرق على أبواب الأطباء في كل محافظات مصر، ٣ سنوات من اشتراء هدايا للمواليد من أبناء أسرتها وأصدقائها وهم يرددون كل مرة «المرة المقبلة ستكون عندك إن شاء الله» ولكن المرة المقبلة تكون عند أحد آخر سواها، تشعر أن حياتها بلا معنى على الرغم من حب محمد لها، هي تعرف أنه يحبها حقا، لقد ترك مدينته وأسرته وأصدقاءه من أجلها، لم يلحّ يوما لمعرفة أسباب تأخر حملها بل كان يتظاهر بأنه لا يهتم أصلا.

- أنا لا أفهم لِمَ الاستعجال يا حبيبتي؟ كل شيء عند الله بقدر.

- لا تحاول إقناعي بأنك لا تريد أن تكون أبا.

- بالطبع لا، سأكون أبا وستكونين أجمل أم، لكن في الموعد الذي يريده الله، ولتكن مشيئته.

- وماذا لو لم يحدث؟

- سيكون هذا أيضا قدر الله، ويكفيني وجودك معي.

تقتلها كلماته بدلا من منحها الطمأنينة، هذا حديث الآن، لكن لاحقا سيتغير الأمر برمته، لقد رأت هذا السيناريو من قبل، سيتغير تفكيره حين يرى أصدقاءه يلعبون الكرة مع أولادهم، سيتغير تفكيره حين يرى أبناء حسام أو أبناء سارة وهو الأكبر بينهم، ستخبره أمه بأنها تريد أن ترى أحفادها قبل موتها، وسيسأله كل من يعرفه السؤال المقيت الذي يلاحقها أينما ذهبت «مفيش حاجة جاية في السكة؟» ومن ناحية أخرى فأمها تلح عليها في هذا الأمر كثيرا.

- لقد ذهبنا إلى الطبيب وأخبرنا أنه لا توجد مشكلة، هي مسألة وقت فقط يا ماما.

- لا يعجبني هذا الطبيب، يبدو أنه حمار، جارة سمية ابنة خالتك ذهبت إلى طبيب ممتاز، سأحصل على عنوانه ورقم هاتفه وأحجز لك.

- لكن يا ماما...

- لا يوجد لكن، ألا تريدين أن تري أطفالك؟

تصمت صفاء بينما تدبر أمها الأمر، وتذهب إلى الطبيب فيطلب منها ذات التحاليل والأشعة ثم يخبرها بما قاله سابقوه بأنه لا توجد مشكلة والمسألة مسألة وقت، فتثور أمها وتعلن أن هذا الطبيب حمار، وتبدأ في التنقيب عن طبيب جديد.

ينهمك محمد في عمله وتجلس هي في البيت تتخيل أسوأ السيناريوهات، كانت تعمل معه قبل الزواج، لكن منذ بدأ ماراثون الأطباء تركت العمل وتفرغت لإرضاء رغبة أمها في البحث عن الطبيب الذي لا يكون حمارا، العمل ليس مشكلة فالشركة التي يعمل بها زوجها هي شركة والدها ويمكنها العودة من الغد لكنها لا ترغب في رؤية أحد، أصبحت تتحاشى المناسبات الاجتماعية كي لا يبدأ الجميع نهش روحها سرا وعلانية، أصبحت حتى تتحاشى زيارة أسرته، على الرغم من أن حماتها لم تتحدث معها مطلقا في هذا الأمر، لكنها ليست بحاجة للحديث، بالتأكيد تنتظر أول أحفادها بفارغ الصبر، بالتأكيد تسأل محمد كلما رأته أو هاتفته عن «الجديد» وبشكل ما تشعر صفاء أن كل هذا التأخير بسببها.

تأخذ نفسا عميقا وتنفثه ببطء، تسمع صوت محمد ينادي عليها.

- أنا في الشرفة.

- ألم تستعدي بعد؟

- لقد جهزت الحقائب، سأبدل ملابسي فقط.

يعلم أنها لا تريد الذهاب لكنه يعلم كذلك أنها مخطئة في ذلك، هو يحبها ولن يسمح لأي شخص بإيذائها حتى نفسها، وحاليا أكثر من يؤذيها هي صفاء، بأفكارها ووساوسها، أخبرها مرارا أنه لا ضير في الانتظار، يشفق عليها من هذا العدد المهول من الأطباء الذين تذهب إليهم لكنه في موقف حرج، يعلم أن أمها هي من تصر ولا يريد أن يسبّب المزيد من المشكلات بينهما، لقد حاول مرة أن يلفت نظر حماته إلى أنه لا يمانع الانتظار فكان ردها مفحما:

- أنت يمكنك الانتظار لكن أنا لا يمكنني، لن يأتي من العمر مثل ما مضى وأريد أن أرى أطفال ابنتي.

هكذا وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، وبخاصة أنه يعمل لدى أبيها، في مواقف كتلك يتمنى محمد لو أن أباه لا يزال على قيد الحياة ليمنحه خلاصة خبرته، ليمنحه الحكمة، ليخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام، من قال إنه

مهما بلغنا من الكبر عتيا لا نظل في قلوبنا أطفالا نريد التشبث بآبائنا لنشعر بالأمان؟

- حسنا، سأحمل الحقائب إلى السيارة وأنتظرك، لا تتأخري.

- محمد، هل يجب عليّ الذهاب؟

يضع محمد الحقائب من يديه ويتجه إليها.

- صفاء، انظري إليّ، لقد افتقدوكِ، ماما وسارة وحسام يريدون رؤيتك والتمتع برفقتك فقط، كل مرة أذهب وحدي وأتحجج بإرهاقك أو تعبك أو، أو، لكن إلى متى يا حبيبتي؟

تشيح صفاء بوجهها، فيحتضنها.

- لا عليك، ألقِ بحمولك على الله وكفي عن القلق، هيا، أين الابتسامة التي اختطفتني من الجميع؟

تحاول صفاء الابتسام.

- لا، ليست تلك.

تحاول مرة أخرى.

- هل هذا أفضل ما لديكِ؟

تتسع ابتسامتها رغما عنها.

- أجل تلك، أنت مجنونة إن اعتقدتِ أنني أستطيع العيش من دون هذه الابتسامة، هيا، بدلي ملابسك بسرعة سأنتظرك في السيارة.

يقبل يدها ويحمل الحقائب ويغادر المنزل، تستند صفاء إلى سور الشرفة لتلقي نظرة أخيرة على البحر قبل المغادرة، ترنو بناظريها إلى أسفل لترى محمد يضع الحقائب في صندوق السيارة، يرفع رأسه ويشير إليها بيده بمعنى «أسرعي» تبتسم وتتجه إلى خزانة الملابس، هي تحبه فعلا، فقط لو زاد عدد سكان هذا المنزل ستكون أسعد إنسانة في الكون، ترفع رأسها إلى السماء وتدعو من أعماقها:

- يا رب.

***

نجلس إلى المائدة التي قلما نجتمع حولها منذ رحيل أبي، يتبادل حسام ومحمد العبارات المستفزة كعادتهما، لن ينضجا أبدا، بينما تحث أمي صفاء على الأكل لأنها فقدت كثيرا من وزنها، أنظر إلى مقعد بابا الخالي وأشعر بأن الطعام يقف في حلقي، أتظاهر بتناول الطعام مستغلة انشغال ماما في الترحيب بمحمد وصفاء ثم أعلن شبعي وأغادر المائدة.

- لم تأكلي شيئا يا سارة.

تقولها ماما باستنكار.

- الحمد لله، سلمت يداك يا ست الحبايب، لقد شبعت، سأعد الشاي.

أقولها وأتجه إلى المطبخ لإعداد الشاي بالنعناع، وهو الطقس المقدس في منزلنا بعد الغداء، بغض النظر عن أنه غير صحي بالمرة، أقف أمام الموقد أراقب الماء وأنتظر غليانه فيشرد ذهني.

- يجب أن تجرب الشاي بالنعناع الذي أعده، ستدمنه.

- لا أحب الشاي.

- ماذا تحب؟

- أحب عينيك.

ينتزعني صوت أمي من أفكاري:

- سارة، هاتفك يرن.

هاتفي! بالتأكيد ليس العمل لأنني ما زلت في إجازة حتى الغد، ربما بسمة، أذهب إلى غرفتي لأحضر الهاتف، يومض رقم غريب على الشاشة، لا أحب ظهور الأرقام على هاتفي، أشعر بالقلق كلما ظهر رقم بلا اسم، أنظر إلى الشاشة مليا وأقرر عدم الرد، أضع الهاتف في جيبي وأعود إلى المطبخ لإعداد الشاي، الماء على وشك الغليان، أعد الأكواب وينطلق الهاتف مرة أخرى، فأجيب:

- ألو.

- سارة، كيف حالك؟

- الحمد لله، من معي؟

- نسيتني بهذه السرعة؟ قلبي الصغير لا يتحمل.

هذا الصوت وهذه التعليقات الهزلية أعرفها جيدا.

- أهلا أبو مريم، كيف حالك؟

- أبو مريم! أشعر أنني أحد أعضاء السلطة الفلسطينية، الحمد لله.

- بسمة أعطتك رقمي؟

- ياللعبقرية! كنت أحدثها وأخبرتني أنك شعرتِ بالاستياء لأنني غادرت من دون إخبارك، وقضيتِ اليوم الأخير تبكين رحيلي، لأن الرحلة لم يكن لها أي مذاق من دوني.

- بخيال كهذا كان لا بد من أن تكون كاتب سيناريو وليس مصورا يا أخ يوسف.

أقولها ضاحكة وأصب الماء على الشاي.

- ربما، على أي حال، أنا آسف حدث كل شيء بسرعة ولم أجدك.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- الحمد لله، لقد أخبرت رانيا عنك بالمناسبة وهي تريد مقابلتك في أقرب فرصة.

- حقا؟ إن شاء الله عما قريب.

- حسنا يا فتاة، احفظي رقمي بهاتفك، وأتمنى أن أراكِ قريبا لنكمل كلامنا.

- بإذن الله.

- مع السلامة.

- سلام.

أنهي المكالمة وأضع وريقات النعناع الخضراء في الأكواب، وأحملها إلى الشرفة حيث يجلس الجميع، أمرر الأكواب عليهم وأجلس بجوار حسام، حيث تجري مقارنة حامية بين الحياة في القاهرة والحياة في الإسكندرية، يقطع

الحديث صوت زغاريد في بنايتنا، تنصت أمي جيدا.

- الصوت آت من بيت سعاد.

تتساءل صفاء:

- من هي سعاد؟

فأبادرها:

- جارتنا، الشقة المقابلة لنا.

تستأذن أمي لتستطلع الأمر، فيميل حسام على أذني:

- لو أن مها قد خُطبت فلن ترحمك ماما.

- ربنا يستر.

تعود أمي بوجه تبدو عليه آثار الانزعاج.

- لقد خُطبت منار.

تتساءل صفاء مرة أخرى، فيجيبها محمد:

- طنط سعاد لديها ٣ بنات، مروة ومها ومنار، مروة الكبرى طبيبة، ومها صديقة سارة، ومنار الصغرى لا تزال في الجامعة.

تضحك صفاء:

- إمبراطورية ميم.

- بالضبط.

- العقبى لك يا سارة.

تقولها أمي بنبرة لائمة، فأنظر إلى حسام الذي ينظر إلىّ نظرة من نوع «ألم أقل لكِ؟» أعلم جيدا أنها - كأي أم مصرية صميمة - تعتقد أن الزواج هو الحل وهو الهدف الأسمى وهو الغاية الكبرى، ولكنني لن أتزوج لمجرد أن أصير متزوجة فحسب، وهذه نقطة الخلاف بيننا ورغما عني أجدني أهمس في غل «فليخرب الله بيتك يا محمود».

***

منذ خطبة منار ومها مصابة بنوع من الحنق المزمن، هي نفسها لا تدري لماذا تشعر بتلك الغصة كلما رأت الخاتم الذهبي في يدها، تنتظر منها أي خطأ مهما كان تافها لتثور في وجهها، تتعمد تأنيبها والشجار معها حين تتحدث بالهاتف مع خطيبها، في البداية لم يتدخل أحد لعلها نوبة غيرة ستأخذ بعض الوقت ثم تهدأ، لكن الأمر زاد على الحد، ومها لم تكن تشعر بأي من هذا، في داخلها كان هناك إحساس بأن ذلك حقها، حقها في الاعتراض على هذا الظلم الذي وقع عليها، ليس من العدل مطلقا خطبة أختها الصغيرة قبلها، ولا تدري كيف قبل أبواها بهذا الوضع، كيف جارا على حقها بهذه الطريقة؟

تهرب مها إلى عالمها الافتراضي تبث غضبها في محادثات عشوائية، تكتب تعليقات ساخرة في صفحة أختها الشخصية، تواصل البحث عن قصتها الخرافية، تتخبط بلا هوادة في عالم من الألياف الضوئية، عالم من الوهج الخداع يجذبها كما تجذب النار الفراشات، ستحترق أجنحتها لا محالة، لكنها لا ترى، لا تفكر.

ـ ماذا دهاكِ يا مها؟

تقولها مروة باستنكار وهي تقف على باب الغرفة. تعتدل مها في جلستها على الفراش وهي تحمل هاتفها في يدها.

ـ ماذا تعنين؟

تغلق مروة الباب خلفها وتجلس بجانبها.

ـ لماذا تعاملين منار بهذه الطريقة الغبية؟

تنظر إليها مها شذرا وتدفن وجهها في الهاتف مرة أخرى.

ـ أنا أتحدث معك، من الذوق أن تتركي ما بيدك وتنظري إليّ كما أنظر إليك.

ـ أنا لم أطلب منكِ التحدث معي.

تأخذ مروة نفسا عميقا في محاولة للاحتفاظ بصبرها لأطول وقت ممكن.

ـ حسنا، كما تشائين، سأستدعي بابا ليتحدث هو معك.

تزفر مها في ضيق وتلقي الهاتف على الوسادة كطفلة عنيدة.

- حسنا، ماذا تريدين؟

- ما هذا؟ هل تعتقدين أنك في السابعة من عمرك؟ ما هذه التصرفات الطفولية؟

- لا لست في السابعة، أنا في الثامنة والعشرين، يجب أن يلاحظ الجميع هذا.

- بمعنى؟

- بمعنى أنني أكبر من تلك البلهاء بتسع سنوات، كيف يقبل بابا خطبتها قبلي؟ وكيف لا تغضبين وأنت الكبرى بيننا؟

تنظر إليها مروة غير مصدقة، ولكنها تحاول الاحتفاظ برباطة جأشها، تعتدل في مجلسها وتتحدث بأهدأ نبرة صوت ممكنة:

- ما هذا الهراء؟ أولا منار ليست بلهاء، منار فتاة طيبة القلب وتحبنا جميعا، ولم تعد طالبة في الإعدادية، لقد أصبحت فتاة جامعية ومجتهدة كذلك، وأحبت زميلا لها وأحبها بدوره وترجم هذا الحب إلى فعل محترم، ما زالا صغارا، وأمامهما بضع سنوات حتى يتخرجا وينخرطا في الحياة العملية، هما أول من يعرف ذلك، لكن الولد ميسور الحال ووالده مستعد لمساعدته حتى يقف على قدميه، فما المشكلة؟

- الهانم تذهب إلى الجامعة لتتعلم أم لتحب؟

- قدر الله، ما شأنك أنت؟

- شأني أنها كان يجب أن تفهم أنها الصغرى، هناك من يكبرنها سنا، هناك أولويات...

تقاطعها مروة:

- وهناك نصيب، أنا لا أفهم كيف تفكرين بهذه الطريقة؟

- أنا التي لا أفهم كيف توافقين على هذه المهزلة؟

- أنا لا أرى أي مهازل بخصوص منار، فليبارك الله في عمر بابا، لو كان يرى أن ما يحدث مهزلة لما سمح بها، اسمعيني يا مها لأنني لن أكرر هذا الكلام مرة

أخرى، منار مكسورة الخاطر بسبب أفعالك الدنيئة تجاهها، أختك الصغيرة لم تذنب، أولى بك أن تفرحي لفرحها، لأنها أول من سيفرح لك، ثم تعالي هنا، ليس معنى أننا لا نتحدث معك في شيء أننا راضين عن تصرفاتك الغريبة، منار الصغيرة التي تقولين إنها بلهاء هي التي تساعد ماما طوال اليوم في أعمال المنزل، أنا أحاول المساعدة كلما استطعت لكن المستشفى والنوبات والماجستير تلتهم وقتي، ومع ذلك أستقطع وقتا لأسرتي وأصدقائي، ما عذرك أنتِ؟

- آسفة أنني لم أكن بعبقريتك ولم أحصل على ١٠١٪ في الثانوية العامة يا دكتورة.

- كفي عن السخف، تجلسين طوال اليوم أمام هذه الأجهزة التي أصابتك بلوثة وتتجنبين أي حياة اجتماعية طبيعية، لا تتحدثين مع أسرتك، لم يعد لديك أصدقاء، ليس لديك عمل، لا تحاولين التطوير من نفسك، لماذا لا تأخذين دورات في الحاسب أو في لغة ما قد تفيدك في البحث عن عمل؟ لماذا لا تكملين دراستك لتحسني من مؤهلاتك؟ حتى صديقتك الوحيدة التي ظللتِ على علاقة بها انقطعتِ عنها فجأة، مات والدها ولم تذهبي لتعزيتها مع أنها تسكن أمامك! ماذا تفعلين بالضبط؟

- أنا...

كانت الثورة قد ألمت بمروة بالفعل فصاحت بها:

- كفى! هل أنت تعيسة لأنك في أواخر العشرينات ولم تتزوجي بعد؟ أنا في منتصف الثلاثينات، هل ألقي بنفسي من النافذة مثلا؟ تحقدين على أختك الصغيرة لأنها أحبت وخطبها من تحب؟ ما هذه النفسية المريضة؟ تقضين وقتك بالكامل متشرنقة أمام هذه الخردة وتريدين أن تحظي بفرصة للحب والزواج؟ كيف؟ دعك من الحب والزواج، كيف تريدين أصلا تحقيق فرصة للحياة وأنت تغلقين كل الأبواب في وجه الحياة؟ تدفنين وجهك في الهاتف في كل مكان، هنا، في أي تجمع عائلي، حتى في أثناء سيرك في الشارع، تمر الحياة بجانبك ولا ترينها، وكيف ترينها إذا أحنيتِ رأسك طوال الوقت ولم ترفعي عينيك عن هاتفك؟ هذا هو العمر الذي يجب أن تحزني عليه، العمر الذي تنثرينه ترابا مقابل حياة زائفة لا تسمن ولا تغني من جوع، ارفعي وجهك قليلا وانظري حولك قبل أن يضيع عمرك بأكمله حقا.

تختنق مها بدموعها، لم يسبق لها أن ترى مروة بهذه العصبية، وتواصل مروة

ثورتها:

ـ لقد فاض الكيل، نحاول جميعا ألا نجرح مشاعرك لكنك لا تبالين بأحد سوى نفسك، ما المطلوب منها الآن؟ أن تلقي بخاتم الخطبة في وجه خطيبها وتقول له «آسفة لا يمكن إتمام الزواج في الوقت الحالي، حاول مرة أخرى بعد زواج مها»؟

ـ أنت لا تفهمين، منار الأجمل بيننا، إذا فاتها فرصة فستأتيها عشرات الفرص، فلماذا التسرع؟

ـ يا إلهي! هل تستمعين إلى هذيانك؟

ـ لا يا مروة، هذا ليس هذيانا، هذا ما يجب أن يحدث، ثم لا تخبريني أنك لا تريدين الزواج وقد قاربت كل فرصك على الانتهاء.

تنظر إليها مروة غير مصدقة أنها بالفعل قالت هذا، تتعلثم مها وتردف من بين دموعها:

ـ مروة، أنا آسفة، أنا لم أقصد.

تشيح لها مروة بيديها:

ـ ولا كلمة أخرى، فلتفكري فيما قلته لك لأنني لن أكرره ثانية.

تقولها وهي تفتح الباب وتغادر الغرفة.

تدفن مها وجهها في الوسادة وتبكي، يهتز الهاتف بنغمة إحدى الرسائل الفورية، تجلس في الفراش وتلتقطه، تنظر إليه طويلا وتضع إصبعها على زر إغلاق الهاتف، تجلدها كلمات مروة، جزء منها يعلم أنها الحقيقة، لكنها تأبى أن تعترف بهذا، لماذا؟ لأن عالمها سيتداعى إذا فعلت، يهتز الهاتف في يدها مرة أخرى، تزيح إصبعها من فوق زر الإغلاق وتنتقل إلى لوحة المفاتيح لتسطر ردا على الرسالة الجديدة، تحني رأسها من جديد وتنزلق مرة أخرى إلى عالمها المحبب.

***

أغادر مقر عملي لأعلق في الزحام اليومي، أتوقف للمرة الألف، هاتفي يهتز بعنف في حقيبتي، ألتقطه، إحدى صديقاتي اللاتي لا يظهرن إلا عند حاجتهن

لخدمة ما، تعرف هذا النوع من الأصدقاء، الذين لا يتذكرونك إلا عند الحاجة، والذين لا تعرف مسمى علاقتك بهم بالضبط، فالصداقة ليست كعلاقتك بآلة سحب العملة، تتذكرها عند اقتراب حافظتك من الإفلاس وتعتصر الجنيهات منها لأن ذلك واجبها المقدس، ثم تنسى أمرها حتى مرحلة الإفلاس التالية، ألقي الهاتف على المقعد المجاور، لست في مزاج مناسب للتظاهر بسعادتي بتلقي اتصالها الآن، لكن الاتصال يستمر إلى ما لا نهاية. «تبا!» لماذا لا تموت شبكات الجوال إكلينيكيا إلا في المكالمات المهمة، وتكون في قمة لياقتها عندما يكون المتصل شخصا سمجا؟ إذا اتصلت بي ١٠ مرات متتالية ولم أرد فهناك احتمال كبير أنني لا أرغب في الحديث معك، بديهي أليس كذلك؟ أتجاهل الهاتف وأدير مشغل الموسيقى، يتساءل محمد عبد الوهاب بصوته الرخيم «فين طريقك فين؟» جميل! لماذا لم أولد في هذا الزمن الهادئ؟

- سأعيش وأموت من دون أن يقول لي أحدهم «باردون مادموازيل» بينما تشبعت أذناي بعبارات التحرش حتى صارت جزءا قذرا من روتيني اليومي.

أتمتم بالعبارة وأنا أحمد الله على سلامة الوصول، أصعد الدرج في نشاط ثم أتوقف في الطابق الثاني لأستدعي المصعد لأن قلبي يوشك على التوقف، إن لياقتي البدنية في أسوأ حالاتها، لا بد من أن أجد حلا لهذا الموضوع، أدلف إلى المنزل وألقي بجسدي على أقرب مقعد.

- عدتِ يا سارة؟

تتساءل أمي بمجرد دخولي إلى البيت.

- لا، ليس بعد.

أقولها وأنا أخلع حذائي وأستمتع بذلك الإحساس الرائع بتحرر قدمي من عبودية الحذاء طوال النهار.

- ظريفة جدا.

مر نحو أسبوع على خبر خطبة منار الذي نزل كالصاعقة على أمي، وجود محمد وصفاء خفف عنها الصدمة كثيرا وبالتالي وفر علينا الكثير من المشاحنات، يسرني أنها في مزاج جيد.

- حبيبتي يا منى، أين باقي القبيلة؟

- حسام ومحمد يزوران بابا، وصفاء نائمة.

تترقرق الدموع في عيني لدى ذكر أبي، فتبادرني أمي:

- هيا، بدلي ملابسك واستعدي للخروج معي أنا وصفاء.

- إلى أين؟

- سنتسوق وسأدعوكما على العشاء.

- ياللروعة! يا ليتك يا صفاء تأتين كل يوم، وماذا عن الشباب؟

- فليتصرفا، هذه ليلة نسائية بحتة، هيا، بسرعة.

تقولها وتذهب لتوقظ صفاء، كم أحبك يا أماه! المشكلة أننا لا نتفق مطلقا، وهذا ما يشعل الحوار بيننا، أعلم كم هي طيبة وحنون، لكنها - ككل أم - تعتقد أنها تعرف أكثر، وأفضل، لذا لا تجادلها ونفذ ما تقول فحسب من دون نقاش!

أسير حافية القدمين إلى غرفتي لأبدل ملابسي، ويدوي التساؤل في عقلي، هل سأكون أمًا يوما ما؟

***

يجلس محمد صامتا بجانب أخيه على ضفة النيل، هناك تعويذة ما تحول النيل في الليل إلى نهر من السحر، على الرغم من أنه أصبح يرى البحر يوميا لكنه يفتقد الجلوس بجانب النيل ليلا. يقطع حسام الصمت:

- بعد مرور ما يقرب من ٣ سنوات، لا أزال لا أصدق أن بابا قد مات، أحيانا أشعر أنه سيفتح الباب ويدلف إلى المنزل حاملا شيئا نحبه، أحيانا أشعر بخطواته خارج غرفتي يوشك أن يفتح الباب ويطلب مني أن أذاكر أو أنام، أذهب إلى المقابر وأقف أمام قبره ولا أصدق أن هذه الصخرة تقبع فوق جثمانه وأنني لن أراه ثانية.

يربت محمد على كتف أخيه.

- لست وحدك يا حسام، المشكلة أن كل شيء حدث بسرعة متلاحقة فاقت قدرتنا على الاستيعاب، لم يكن بابا مريضا أو مسنا، هل يتحدث أحد مع سارة بخصوص ما حدث؟

- لا، أحيانا أشعر بالغضب وأود تحطيم رأسها، لكن معظم الوقت أشفق عليها، الذنب يجلدها هذا واضح، هي تقريبا لا تنام، لا تعرف أنني أحيانا أراقبها ليلا تجلس على سور الشرفة تبكي.

يحدق فيه محمد مدهوشا.

- سور الشرفة؟!

- لا تخف، هي لن تفعل شيئا غبيا، ما حدث كان بمثابة صفعة قوية لها، ثم إنني لن أدعها تؤذي نفسها بأي شكل، هي أمانة في عنقي بعد رحيل بابا وانتقالك إلى الإسكندرية، أخبرني، كيف حالك وحياتك هناك وعملك؟

يتنهد محمد.

- الإسكندرية جميلة، الحياة وتيرتها أهدأ من القاهرة بكثير، وبخاصة أنني أقضي معظم الوقت في العمل.

- يا بخت من كان المدير حماه يا أستاذ محمد!

يقولها حسام مشاكسا.

- بالعكس، إنها مأساة! لأن الكل يتوقع أنك تتلقى معاملة خاصة في حين أنك مثلك مثل غيرك، الحق إن والد صفاء رجل طيب، لكنه رجل أعمال لا يهمه في نهاية اليوم إلا سير العمل على نحو مثالي.

- بالطبع، لا مزاح في العمل.

- الرجل لم يبخل علي بشيء يا حسام، منحني عملا، ثم منحني ابنته، ومنحنا شقة لم أكن أحلم بامتلاكها قبل ٥٠ عاما في العمل، أحيانا أشعر أنه حتى ليس لدي الحق في أن أغضب أو أشعر بالحنق في يوم سيئ، هل تفهم ما أعنيه؟

- أجل، لكنك تتقاضى راتبك مقابل عملك وليس مقابل زواجك من ابنته، ضع ذلك في حسبانك دائما، وبمناسبة ابنته، صفاء تبدو حزينة، أنا لا أريد التدخل في ما لا يعنيني، لكن...

يهز محمد رأسه.

- لست وحدك من لاحظ، ماما لاحظت وأخبرتني أنها ستأخذها وتخرج مع

سارة لتبعدها عن جو المنزل قليلا.

- هل حدث شيء؟

- أنت تعرف، موضوع الأطفال يسبب لها حساسية غير طبيعية، لقد أصبحت أخشى حتى اصطحابها إلى مركز تجاري للتسوق، لأنها تقف تبكي أمام محال ملابس الأطفال.

- أنت تمزح!

يهز محمد رأسه نفيا.

- مسكينة!

- صدقني، لو أن الأمر بيدي لأخذتها بعيدا عن أمها لأنها هي من تضع كل هذا الضغط عليها، لكن إلى أين أذهب؟

- لا يوجد أحد بلا مشكلات يا محمد، العزب يشعر أنه يقف مكتوف الأيدي يراقب كل من حوله يتزوجون ويكونون أسرهم الخاصة، والمتزوج يشعر بأنه مراقب من كل من حوله انتظارا للإنجاب، والأب يشعر أنه في سباق مع الزمن لتوفير حياة كريمة لأسرته، الكل يشكو.

- ما هذه الفلسفة يا باشمهندس؟

يقولها محمد متهكما.

- الدنيا يا محمد يا ابني.

يرد حسام بسخرية:

- ترى ماذا يفعلن الآن؟ هل أتصل بهن؟

- لا، لا، ستصب ماما اللعنات على رأسك ولن تبالي إن كانت زوجتك تسمعها، دعهن يستمتعن قليلا، هيا، سأتصل بالشباب وسنحصل نحن على ليلتنا، سيفرحون كثيرا لرؤيتك، هيا.

ينهض محمد ويسير بجوار أخيه إلى سيارته، يلقي نظرة سريعة على ما حوله، هل تسرّع في الانتقال إلى الإسكندرية؟ يتساءل في أعماقه ويأتيه الرد سريعا، بالنفي.

الفصل الخامس

تنساب موسيقى «كيني جي» الحالمة من مكان ما في المقهي الهادئ، يتناثر الرواد على طاولات ذات طابع عربي أصيل يتناقض تماما مع الموسيقى الأمريكية الأصيلة التي تغلف المكان، لكن لا يبدو أن أحدا يلاحظ أو يأبه بذلك، على طاولة جانبية يجلس محمود ينظر في فتور إلى الفتاة الملونة التي تجلس أمامه تثرثر بلا انقطاع بينما ينفث دخان لفافته العاشرة بملل تام.

- صدقني كان يجب أن تكون معنا ذلك اليوم لترى بنفسك، لا أتوقف عن الضحك كلما تذكرت وجه علا حين...

يمتص المزيد من النيكوتين إلى دمه وينفث مله دخانا كثيفا يتشابك مع الموسيقى الحالمة وإحساسه القاتل بالسأم ليضع أوزانا على جفنيه تغريه بالنوم، لكنه تعود على هذه الخدعة، يشعر بالنعاس طيلة اليوم حتى تطال رأسه الوسادة وحينها يصبح أكثر نشاطا من طفل في السادسة، يرنو إلى الفتاة التي تواصل سرد حكايات لا يأبه بها على الإطلاق، تعرف عليها منذ فترة على الإنترنت لكنه لا يذكر أنها كانت بهذا السخف حينها، ثم إنه لا يحب النظر إلى وجهها كثيرا، تعرف طراز الفتيات السمراوات اللاتي لا يدركن مدى سحر بشرتهن فيسكبن طبقة من الجير الأبيض عليها لتحيلها إلى بشرة رمادية تميل إلى اللون الأزرق ثم يزدن المبلة طينا بوضع طبقات لانهائية من الكحل جديرة بلوحة فرعونية، ثم طلاء شفاه يثير الكثير من التساؤلات عن السلامة العقلية للفتاة؟ يتذكر اللون الخمري الرائق لبشرة سارة، وعينيها الرمادتين اللتين طالما أبكاهما، زينتها الهادئة وابتسامتها الطفولية، الآن فقط يتذكر ملامحها جيدا، حين كانت هناك كان يشعر بذات الملل الذي يشعر به الآن، كان يشعر أنه ضاق ذرعا بحبها له، باحتياجها إليه، حتى عينيها اللتين يحبهما كان قد سأم نظرتهما إليه، بعد أن تركها شعر بأنه قد تنفس الصعداء، بأن الروح قد دبت في حياته مرة أخرى بعد سنوات من الموت الإكلينيكي في قيود سارة وعلاقته بها، مرت سنتان كاملتان نسي كل شيء عنها، عشرات الفتيات حللن محلها، عشرات أجمل وأصغر وأكثر ذكاء وأناقة ودلالا منها، عشرات من العيون السوداء والزرقاء والعسلية، يقابلهن في العمل أو عن طريق أصدقائه أو عن طريق الإنترنت، اختيارات لا محدودة وآمال لا نهائية بالسعادة غير المشروطة، عمله في شركة الأدوية يتيح له التنقل بحرية ويمنحه المزيد والمزيد من الخيارات، صيدلي في أواخر العشرينيات يعمل في شركة أجنبية ويعيش بمفرده، معادلة تجعله يملك الدنيا بما فيها، هكذا

كان يظن، هكذا كان يشعر حتى وقت قريب، حتى رآها صدفة.

- لكنني قلت لماجد إن ذلك لا يمكن أن يحدث لأن غادة ستثير الكثير من المشكلات إذا علمت بهذا، وبخاصة إذا كان...

يطفيء لفافة التبغ ويشير إلى النادل ليحضر له الحساب.

- هل سنغادر؟

يومئ برأسه إيجابا.

- بهذه السرعة؟ لقد قلت إننا سنذهب إلى...

يقاطعها وهو يدفع الحساب:

- المرة المقبلة، لقد تذكرت شيئا مهما يجب إنجازه، هيا لأوقف لك تاكسي.

تنظر إليه باستنكار.

- ألن توصلني؟

- ليس اليوم، هيا لا تجادلي كثيرا.

يقولها بجفاء وهو يسبقها إلى الخارج، يوقف لها تاكسي ويغلق خلفها الباب ثم يستدير ويعود إلى المقهى مرة أخرى، يجلس في ذات الطاولة ويطلب من النادل كوبا من القهوة ويغمغم:

- هذا أفضل.

لما يقرب من ٣ سنوات تجنب ذكرها، محا كل شيء يتعلق بها، تجنب الذهاب إلى الأماكن التي كانا يذهبان إليها معا، تجنب الذهاب إلى الأماكن التي تحبها، الشواطئ التي تحبها، تجنب حتى السير في المناطق القريبة من منزلها أو عملها، كان شديد الحرص على ألا يجمعهما مكان واحد مطلقا حتى لو افتراضيا، ونجح في ذلك بالفعل حتى بضعة أشهر مضت.

كان في أحد الفنادق الكبرى التي تستضيف مؤتمرا للأطباء برعاية الشركة التي يعمل بها ورآها هناك في بهو الفندق مع صديقتها ورجلين آخرين، للوهلة الأولى تسمر في مكانه غير مصدق، اقترب قليلا وحرص على ألا تراه، شعر بذوبان الجليد المحيط بقلبه، الفتاة التي أضاع في عشق عينيها أجمل سنوات عمره

تجلس أمامه ولا يستطيع حتى محادثتها، لم تزدها السنوات إلا سحرا، ينظر إلى يديها في خوف لا يفهمه، لا توجد أي قيود ذهبية، تتحدث بطريقتها العفوية المرحة مع من معها فيشعر بالدماء تصعد إلى أذنيه، من هذان اللذان تتبسط معهما هكذا؟ لكنه يتذكر أنه لا شأن له بكل هذا، ولو أنه ظهر أمامها الآن فمن أبسط حقوقها أن تستدعي له أمن الفندق ليلقيه خارجا.

تلتفت بسمة بغتة فيتراجع ويلفت وجهه، ثم يدير وجهه نحوها مرة أخرى ليجد بسمة تنظر إلى عينيه مباشرة في غضب، فيبتعد إلى خارج الفندق يحاول استعادة رباطة جأشه، وبأنامل مرتعشة يشعل لفافة تبغ ويتساءل عما حدث للتو، لماذا كل هذه الأحاسيس المتضاربة؟ يمسح حبات عرق وهمية من فوق جبينه، لماذا الآن يا فتاة؟ لماذا تظهرين الآن وتثيرين هذه العاصفة من الذكريات والمشاعر غير المفهومة؟ عطرها، يشم الآن عطرها فيتجمد مكانه، تمر سارة من جانبه من دون أن تراه وتذهب لتجلس في السيارة، تنتظر بسمة التي تقف خلفه تتحدث مع أحد الرجلين وتخط شيئا ما في ورقة في يدها، يبدو أنها صفقة عمل ما، تصافح بسمة الرجل وتهبط الدرج، تمر بجانبه وتلقي الورقة التي كانت في يدها أمامه وتواصل سيرها إلى السيارة من دون أن تلتفت إليه، تنطلق الفتاتان بالسيارة فينحني ليلتقط الورقة التي كتب فيها بخط كبير «لن أسمح لك بأن تؤذيها» يشعر بالضيق الممزوج بالغضب، يضع الورقة في جيبه ويغادر.

لم ينم تلك الليلة، ظل ينظر إلى الرسالة ويتذكر وجهها، ومع وجهها أغرقه تسونامي الذكريات، كأسد حبيس يود تكسير الجدران والزئير، يغالب رغبة مجنونة في الذهاب إلى بيتها والدق على بابها ثم احتضانها حتى يتوقف قلبها عن النبض، وعلى ذكر القلب، يكتشف محمود الحقيقة المروعة، لقد سلبت قلبه ولم يسترده مطلقا.

تتواصل موسيقى «كيني جي» في التسلل حوله، تتواصل لفافات التبغ في لفظ أنفاسها الأخيرة بين أنامله، يتواصل الصراع المحموم بين ذكرياته ورغباته في تأجيج أفكاره، رواد المقهى يتزايدون من حوله، يطلب من النادل الحساب مرة أخرى، يخرج النقود من محفظته ويخرج معها الورقة الصغيرة التي تحمل رسالة بسمة التحذيرية، يمنح النادل الحساب بابتسامة رياضية ويلقي نظرة أخيرة على الورقة قبل أن يعتصرها بيده ويلقيها بين بقايا لفافات التبغ ويغادر المقهى.

***

أجلس أمام الحاسب لأترجم بعض الوثائق القانونية لأحد العملاء، أسمع صوت كعب حذاء بسمة الرفيع يتجه نحوي، تجذب مقعدا وتجلس بجانبي وتلتقط إحدى الوثائق التي أترجمها.

- ما هذا؟

أسحب الورقة من يدها.

- هذا عمل لا دخل لك به.

تريح رأسها إلى الخلف وتنظر إلى السقف من دون أن ترد كعادتها، فأنظر إليها بشك.

- هل أنت بخير؟

تهز رأسها نفيا، فأترك ما بيدي وألتفت إليها.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، الكثير من التفكير فقط.

- هل يمكنني المساعدة؟

تنظر إليّ وتهم بقول شيء ما لكنها تتراجع وتنهض.

- عندما أصل إلى قرار ما سأخبرك بكل شيء، اتفقنا؟

- كما تريدين.

تبتسم في امتنان وتغادر فأواصل ما كنت أفعله، ليقاطعني رنين الهاتف الذي يومض على شاشته اسم يوسف. كانت قد مرت عدة أسابيع على آخر مكالمة لنا، الحق إنني انشغلت كثيرا الفترة الماضية لذا فقد توقعت ما سيقول، فالتقطت الهاتف وأجبت.

- لم أكن أعلم أنك بهذا البخل.

أضحك.

- ليس بخلا والله، انشغلت قليلا فقط، كيف حالك وحال الأسرة؟

- الحمد لله بخير، وأنتِ؟

- الحمد لله، كالمعتاد.

- لا أدري إن كان هذا «المعتاد» جيدا أم لا لكن لا بأس، المهم، أتصل لأدعوكِ إلى حفل عيد ميلاد الأميرة المبجلة ابنتنا الكريمة مريم يوسف يوم الخميس المقبل بإذن الله في منزلنا المتواضع.

- كل عام وسمو الأميرة بخير، والعقبى للمئة.

- وأنت بخير، سأتصل ببسمة لأدعوها، يمكنك اصطحاب من تودين من أسرتك أو أصدقائك، الدعوة عامة، المهم إحضار الهدايا.

- لا تقلق، لكني لا أعرف العنوان.

- سأرسله برسالة نصية إلى الجميع مع توقيت الحفل، سننتظرك، لا تأخير ولا أعذار واهية، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- سلام.

الطريقة التي يتحدث بها يوسف عن مريم تذكرني بأبي وبي، كنت طفلة أبي المدللة وكان يخاطبني دوما بأميرتي، كنت طفلة أبي المدللة حتى أصابني سهم العشق فنقل لي لعنة العمى والجنون. أغالب رغبتي في البكاء وألتقط الأوراق لأواصل عملي وفي قلبي ألف صرخة تود الهروب.

***

- لماذا يا سارة؟ كيف تفعلين بنا هذا؟

بمرارة يسألني أبي، فأشيح بوجهي ولا أجيب.

***

حاولت مها تجنب منار الفترة السابقة تنفيذا لتحذيرات مروة، وفي نفس الوقت حاولت الاعتذار عن فظاظتها إلى مروة، لكن الأخيرة قررت عدم قبول الاعتذار، كانت تجلس في مقعدها المقدس أمام الحاسب حين سمعت دقات

على الباب تلاها وجه أبيها فوقفت في دهشة وتساءلت تلقائيا:

- هل من خطب ما؟

- لا، فلتستعدي للذهاب مع والدتك لزيارة عمتك في السويس؟

يمتقع وجه مها.

- السويس؟ لماذا أنا بالذات؟ لماذا لا تذهب مروة أو منار؟

- لأن مروة لديها عمل ومنار لديها جامعة، وأنتِ متفرغة.

يقولها وهو ينظر إلى الحاسب باشمئزاز، فتبتلع مها ريقها بصعوبة.

- لكن يا بابا...

يقاطعها بصرامة:

- لا يوجد لكن، أنا لا أناقشك، هذا أمر، ستذهبين مع أمك إلى السويس وستمكثين معها عند عمتك حتى تنهي زيارتها وتعودين معها، مفهوم؟

تومئ برأسها إيجابا.

- عظيم، استعدي للمغادرة بعد العصر.

وقبل أن تقول أي شيء كان قد غادر الغرفة، تنفث مها في غضب لكنها لا تجرؤ على مجادلة أبيها، ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟ تشعر بالحنق لكن لا يوجد أمامها أي خيارات لذا تفتح خزانتها لتجهز حقيبتها وهي تلعن حظها العاثر.

***

أقف على باب غرفة حسام أراقبه وهو يعمل، طالما أحببت رؤيته وهو يذاكر أو يعمل، فحسام من الأشخاص القليلين الذين قابلتهم في حياتي، وهم يحبون ما يعملونه ويجيدونه، يسألني من دون أن يلتفت إلي:

- ماذا تريدين يا ست الحسن؟

- لا شيء يا مستر «بيل جايتس».

يبتسم بسخرية.

- اختصري يا سارة، أنت لا تشرفيني بالزيارة إلا حين تريدين شيئا، ما هو؟

أخطو إلى الغرفة وأقف خلفه لأرى من كتب ما يفعل فأشعر الغباء التام.

- عندي حفل عيد ميلاد، أتود المجيء؟

- عيد ميلاد مَن؟

- ابنة أحد زملائي في العمل.

- تعرفين أنني لا أحب الوجود في أماكن بها أطفال.

- لن يكون هناك الكثير من الأطفال.

- لا، شكرا.

أجلس على الفراش وألهو بهاتفه، يبدو أن بسمة أصابتني بالعدوى.

- هل كلمت محمد مؤخرا؟

- أجل، من يومين، هو من حدثني في الواقع، كان يطمئن علينا، واتركي الهاتف.

- لماذا؟ هل توجد عليه أشياء لا ينبغي رؤيتها؟

- مثل ماذا؟

أبتسم في خبث.

- حبيبتك مثلا؟

تتوقف أنامله عن العمل ويلتفت إليّ.

- هل أرسلتك ماما؟

- لا، ماما عند طنط سعاد.

- جميل، هيا اذهبي إليها والعبي مع البنات واتركيني في سلام.

- لم تجبني بالمناسبة.

- ليس من شأنك بالمناسبة.

- ما اسمها؟

- من هي؟

- توقف عن المراوغة يا حسام، أنا أختك حبيبتك، أخبرني.

- لا توجد فتاة يا سارة، وعندما توجد ثقي بأنني لن أجعلها سرا.

يقولها ويستدير ليواصل عمله فأترك الهاتف وأغادر الغرفة، أعلم أنه صادق، فحسام لا يهوى الأسرار.

***

كانت هناك فتاة.

كانت زميلته في الكلية.

إنجي.

كان حسام الشاب الوسيم المتفوق.

وكانت إنجي الفتاة الخجول البسيطة.

كان الكل يتعجب، يعتقدون أن حسام لديه مواصفات محددة لفتاة أحلامه تتلخص في كونها ملكة جمال الكون، لذا كان حبه لإنجي ضربا من الألغاز بالنسبة إلى أصدقائه، لكن بالنسبة إلى حسام لم يكن الأمر بهذه الأهمية، الشكل الخارجي لم يكن مطلقا مقياسا لأي شيء، كان يحب البساطة والتلقائية، لذا كانت إنجي فتاة أحلامه وسط الكثيرات من الزائفات المتصنعات، كان بالفعل ذكيا.

قبل التخرج بأشهر قليلة أخبرته بأن هناك من تقدم لخطبتها، القصة التي سمعها مرارا لم يتخيل أن تحدث له، لذا أقدم على محاولة يعلم مسبقا بفشلها لكنه حاول على أي حال، لكن بالطبع رفضت أسرتها، فحسام لا يزال طالبا بلا أي دخل ولا شقة ولا عمل ولا يزال أمامه سنوات حتى يقف على قدميه، ما أدمى قلبه فعلا هو عدم تشبث إنجي به، لقد أخبرته بمنتهى البرود أنها لا يمكن أن تقف في وجه أسرتها وأن عليها التفكير في مستقبلها جيدا لأن الزواج ليس لعبة. للمرة الأولى في حياته يشعر بالغباء، ولم يغفر لها ذلك مطلقا.

لم يكن حسام لاهيا بطبعه، لكن إهانة إنجي لكبريائه جعلته يسلك الطريق الذي رسمه له الجميع بناء على مظهره، الشاب محطم القلوب، لم يكن الأمر صعبا على

الإطلاق بالنسبة إليه، فوسامته وذكاؤه وشخصيته الساحرة كانت مزيجا مخدرا، لكنه لم يشعر بأي استمتاع، كان الأمر بالنسبة إليه لعبة أو نوعا من الكوميديا سوداء، حتى توالت الصفعات لتفيقه، منذ أن رأى محمود وهو يكن له بغضا حقيقيا لأنه يعرف حقيقته، يعرف نوعه، يعرفه لأنه يشبهه، حاول تحذير سارة لكنها لم تستمع، ثم جاء تحطيمه قلب أخته، وما فعلته سارة وأصاب والده بخيبة أمل كانت الأولى والأخيرة، ثم رحيل والده المفاجئ، مع انتقال أخيه الأكبر إلى مدينة أخرى لم يعد لأمه وأخته سواه، لذا قرر اعتزال دور الشاب اللعوب للأبد والتركيز في عمله، فعل ذلك لأنه رأى في وجه أخته جميع من لهى بهن، رأى في دموعها وكسر خاطرها ما فعله في الأخريات، لذا عندما يتحدث عن محمود فهو يتحدث عنه بكل مقت وازدراء، يفعل ذلك لأنه يعلم جيدا ما يتحدث عنه. لكل منا أسراره، أليس كذلك؟

***

أغادر سيارة بسمة حاملة تلك الدمية الضخمة التي تكاد تفوقني حجما، بالتأكيد يبدو شكلي مضحكا، تغلق بسمة السيارة وتنظر إليّ وتضحك للمرة المئة.

- توقفي عن الضحك.

- لا أستطيع، ألم تجدي دمية أكبر من هذه؟

- لا أعرف ماذا دهاني, ولكنها أعجبتني.

نخطو إلى المصعد.

- ألم يخبرك أحد من قبل أن الهدية ليست بحجمها؟

- ماذا تريدين أن أفعل؟ ألقي بها في القمامة مثلا؟

ينفتح باب المصعد فنجد عدة أبواب، فأسألها:

- كم كان رقم الشقة؟

- لا عليك، تلك هي شقة يوسف.

تقولها وهي تسبقني إلى الجرس.

ـ كيف عرفتِ؟

ـ لا أدري، ربما أغاني عيد الميلاد الصادرة من الشقة يا ذكية!

ماذا حدث لي مؤخرا؟ أشعر أن أسئلتي صارت على قدر كبير من البلاهة، ينفتح الباب لتطل علينا من أظن أنها رانيا.

ـ أهلا بسمة كيف حالك؟

تقبلها بسمة وتجيب في مرح:

ـ الحمد لله يا جميلة، كيف حالك وحال أميرتنا الصغيرة؟

ـ بخير الحمد لله، تفضلا.

تقولها وهو تفسح لنا المجال بينما تشير بسمة إلي.

ـ هذه سارة، صديقتي وزميلتي في العمل.

ـ آها، سارة، لقد تحدثنا في الهاتف من قبل.

تمد يدها لتصافحني.

ـ أجل، كنت أود رؤيتك من قبل لكن لا توجد فرصة أجمل من عيد ميلاد مريم، كل عام وهي بخير.

أقولها وأمد يدي بهديتي المتواضعة، وتفعل بسمة بالمثل، فتشكرنا وتستأذن لاستقبال باقي الضيوف.

ـ البيت بيتكما، دقائق وسنطفئ الشمع.

تقولها وتتركنا فندور بأعيننا باحثتين عن شخص نعرفه، فأسأل بسمة:

ـ هل قابلتها من قبل؟

ـ أجل، قابلتها مع يوسف والصغيرة في أحد المولات منذ فترة، هل هذه...؟ انتظري هنا سألقي التحية على هذه الفتاة وأعود حالا.

تقولها من دون أن تترك لي أي مجال لفهم ما يحدث، وتتجه إلى إحدى الفتيات وتتحدث معها، بالطبع «حالا» تعني بعد أسبوع من الانتظار، لا أحب هذه المناسبات التي لا أعرف فيها أحدا، أشعر بأنني طفلة نسيها أبواها في محطة

قطار، لكن يبرق الأمل حين أرى يوسف فأتجه إليه تلقائيا وأبادره ضاحكة:

- لقد أتيت بالهدية لا تقلق.

ينظر إليّ في عدم فهم.

- ماذا بك؟ ألم تقل إن أهم شيء هو إحضار الهدايا؟

يومئ برأسه مبتسما:

- بالطبع.

ما هذا الفتور؟ هل وجود رانيا في الجوار هو ما يجعله يتصرف هكذا؟ لكن لا أظن أن علاقتهما من هذا النوع.

- بالمناسبة، أريد رؤية صور الرحلة.

ينظر إليّ في تساؤل ويهم بقول شيء ما ليقاطعه صوت يوسف!

- ها أنتِ يا فتاة كنت أبحث عنك.

أنظر خلفي لأجد يوسف الذي أعرفه، لكن لحظة، من هذا؟ يقترب يوسف ويضع يده على كتف اليوسف الآخر.

- أرى أنك قابلتِ التوأم الطيب.

ترتسم أسمى أمارات البلاهة على وجهي، أحاول الابتسام لمعالجة الموقف وأنظر إليه بلوم:

- أنت، أنت لم تخبرني أن لديك أخا توأما.

يضحك ويتساءل بمكر:

- حقا؟ يبدو أنني نسيت.

أنظر إليه في غل عازمة على تحطيم رأسه في أقرب فرصة.

- على العموم، أعرفك يا عزيزتي، هذا أخي عمر، الدكتور عمر، الأخ الناجح، وهذه صديقتنا سارة، المترجمة التي أخبرتك عنها.

يهز رأسه قائلا:

- أعتذر عن سوء التفاهم.

فأشيح بيدي.

- لا عليك، ليس خطؤك.

أقولها وأرمق يوسف بنظرة لائمة، فقط لتأتي رانيا وتنقذنا جميعا.

- هيا، سنطفئ الشمع.

نتجمع حول المائدة التي تتوسطها كعكة كبيرة تحمل اسم مريم وصورتها، يقف يوسف ورانيا وأمامهما مريم ليغني الجميع أغاني عيد الميلاد المعتادة والتي لا أحبها إطلاقا، لتنتهي بإطفاء الصغيرة الشمعات الثلاث وتلقي بنفسها في حضن أبيها، بينما تقسم الأم الكعكة، أنسحب بعيدا عن الزحام لأرمق كل هذا من بعيد، أشعر بوجيب في قلبي حنينا إلى تلك الأيام، أيام كنت طفلة تملك العالم حين يحملها أبوها على كتفيه، أيام بلا تعب، بلا حزن، بلا خوف، أفتقد تلك الأيام وأذوب شوقا إلى يوم أحمل فيه طفلي بين يدي، أرقب يوسف وعائلته، هل سيكون لي يوما ما نصيبا من هذه السعادة؟ يتجه يوسف نحوي حاملا مريم وطبقا كبيرا من الكعكة.

- هيا يا آنسة سارة، أريدك أن تنسفي هذا الطبق تماما، هذه ليست أي كعكة إنها كعكة الأميرة مريم شخصيا.

أحمل الطبق وأنظر إليه في ذعر.

- بالتأكيد، لكن من سيدفع تكاليف اختصاصي التخسيس بعد ذلك؟

- سنجمع لكِ التبرعات، لا تقلقي.

يقولها ويستدير مبتعدا، فأبحث عن مكان هادئ للجلوس وتلحق بي بسمة حاملة طبقها.

- هل كنتِ تعلمين أن يوسف لديه أخ توأم؟

تهز رأسها نفيا.

- أنتِ في غاية النباهة اليوم، إذا كنت لم أعرف أنه متزوج إلا منك، كيف سأعرف عدد إخوته وهل هو توأم أم لا!

معها حق! ماذا أصاب مخي؟ أرفع يدي لأنظر في الساعة.

- هل تريدين المكوث حتى انتهاء الحفل؟

- لا، إذا كنت تودين المغادرة هيا نحييهم ونرحل.

أومئ برأسي إيجابا وأضع الطبق على أقرب طاولة ونتجه إلى الأبوين السعيدين.

- معذرة يا شباب، لدينا عمل في الصباح الباكر ويجب علينا الآن المغادرة، كان حفلا جميلا.

نتبادل عبارات المجاملة والكثير من «لسة بدري» وأخيرا يطلقان سراحنا فنغادر على وعد بلقاء في أقرب فرصة.

الفصل السادس

- حيث يسود البلاد طقس بارد نهارا شديد البرودة ليلا.

هكذا تردد مذيعة النشرة الجوية بسعادة غامرة فيتزايد إحساسي بالبرد، قررت ماما أن أفضل ما يمكن فعله في هذا الطقس هو النوم، بينما أجلس في الصالة أحتسي كوبا من الكاكاو الذي كان ساخنا لمدة ١٠ ثوان تقريبا، وأشاهد التلفاز الذي لا أشاهده إلا نادرا وفي ظروف استثنائية حماية لعقلي، يغادر حسام مخبأه، أقصد غرفته، ويقرر أن يمضي أمسيته معي، يلتحف بطانية سميكة ويجلس بجانبي على الأريكة.

- ماذا تشاهدين؟

- لا أدري، برنامج حواري كل ضيوفه لديهم نوبة من التوتر.

- يجب عليهم إجراء كشف طبي ونفسي لمن يطلون علينا عبر هذه الشاشات.

- حين تصير وزيرا للإعلام طبق هذا الاقتراح.

- أعطيني هذا الريموت.

أناوله جهاز التحكم ليمارس الهواية الأثيرة لدى الرجال في التنقل بلا هدف بين جميع القنوات، ثم ينتهي به الأمر بإغلاق التلفاز!

- لا يوجد شيء يستحق المشاهدة، ماذا تشربين؟

- كان هذا كاكاوا، ولا، لن أصنع لك كوبا من الكاكاو لأنني لن أغادر مجلسي إلا للنوم، اخدم نفسك بنفسك.

- حسنا، تذكري ذلك في المرة المقبلة التي تريدين فيها الخروج ليلا لاستنشاق الهواء يا سارة هانم.

- لا أخاف التهديدات يا باشمهندس.

- حسنا يا آنسة سارة قلب الأسد، بالمناسبة، رأيت صور رحلة الواحات، جميلة، المرة المقبلة سآتي معك.

- حقا؟ أين رأيتها؟

- على صفحتك في «فيسبوك»، شخص ما، يوسف شيء، وضعها على صفحتك، من يوسف هذا؟ زميلك؟

- ليس بالضبط، هو عميل دائم لدينا، مصور، تذكر عيد الميلاد الذي رفضت الذهاب إليه معي؟ كان عيد ميلاد ابنته.

- آها، أجل لقد رأيت صورها.

- أين؟

- في صفحته.

- هل دخلت صفحته؟

- وما المشكلة، شخص لا أعرفه ينشر صورا في صفحة أختي الصغيرة، على الأقل أعرف من هو.

أنظر إلى حسام في دهشة، ليس من عادته التدقيق في هذه الأمور هكذا، هذه أول مرة يقدم على هذا التصرف، وكأنما قرأ أفكاري.

- أنا لا أراقبك، أنا فقط أحاول الإلمام بكل شيء من باب الاطمئنان ليس أكثر، الوضع مختلف الآن، أنا المسؤول عنك وعن ماما، هل تفهمين ما أعنيه؟

أومئ برأسي إيجابا، أعرف أنه يشعر بأن العبء ألقي على كاهله فجأة بعد وفاة بابا وخروج محمد من الصورة، وأعرف أنه يخشى تكرار تجربة محمود مرة أخرى، وألتمس له العذر لكنني لا أحب إحساس المراقبة هذا حتى ولو كان لأسباب وديّة، ومع ذلك لا أريد أن أثير جدلا بلا فائدة، فأغير من دفة الحديث:

- هل من جديد في موضوع محمد؟

- تقصدين الأطفال؟ لا، لكنه ضاق ذرعا بتدخلات حماته.

- هذا طراز من الأمهات اللاتي يجعلن الحياة جحيما لا يطاق، الحمد لله أن ماما ليست منهن.

- لا يوجد لأبوينا مثيل.

يقولها حسام وينظر إلى باب المنزل ويشرد، أعلم ما يفكر فيه، كثيرا ما أجلس هنا وأنظر إلى الباب أنتظر دخول أبي، يطول الانتظار ولا يأتي.

***

- أحب ليالي الشتاء.

- لماذا؟

- لأنها طويلة، وهذا يعني أننا نتحدث لمدة أطول.

يضحك فيرقص قلبي.

- تحبين حديثنا يا سارة؟

- هل تسأل؟ أنا أحب كل شيء له علاقة بك يا محمود.

- لا تكرهين أي شيء فيّ؟

- مطلقا.

- ماذا تكرهين إذن؟

- الانتظار.

- أعدك ألا تنتظري طويلا.

وخلفت وعدك يا محمود.

***

بعد زيارة استغرقت بضعة أيام عادت مها من السويس مع أمها، لم تعد تتحمل تلك الزيارات العائلية والواجبات الاجتماعية، تريد الهروب إلى عالمها الخاص بعيدا عن كل هذا، لكن ما أن دلفت إلى المنزل حتى أدركت أن هناك خطأ ما، في غرفة المعيشة كان أبوها يجلس مع أختيها وخطيب أختها، لم تكن زيارته إليهم شيئا جديدا لكن في هذا التوقيت كان أمرا غير طبيعي، حيّت أمها الضيف وتبادلت نظرة ذات مغزى مع أبيها الذي أشار لها بالجلوس، همت مها بالانصراف إلى غرفتها لكن أباها استوقفها.

- ضعي الحقائب أرضا واجلسي يا مها.

وضعت مها الحقائب وجلست وهي تشعر بأن قلبها يوشك على القفز من حنجرتها، فتساءلت بصوت حاولت جعله طبيعيا قدر استطاعتها، لكن النتيجة

جاءت مخيبة للآمال:

- خيرا يا بابا؟

بوجه خشبي رد أبوها:

- لا أعتقد أنه خير.

وأشار بيده إلى شيء ما بجانب الطاولة، للمرة الأولى تنتبه مها إلى وجوده، كان حاسبها موضوعا على الأرض بجوار الطاولة، شحب وجهها حتى صارت أشبه بالموتى، حاولت الوقوف اعتراضا على انتهاك خصوصيتها لكن ساقيها خانتاها، فعاجلها والدها:

- لقد أتاني وليد منذ فترة يخبرني بخلاف بينه وبين منار، لقد وجد وليد عدة صور لمنار على هاتف أحد أصدقائه، بالطبع استشاط غضبا وسأله عن مصدرها، فأخبره أنها من فتاة عرفها على الإنترنت تدعى سلمى.

امتقع وجه مها وهي تنظر برعب إلى أختها، كان هذا بمثابة اعتراف واضح بأنها وراء ذلك، فأردف الأب:

- تحدث وليد مع أختك فأخبرته أنها لا تعرف أي شيء عن هذا الموضوع، وأنه ربما يكون الأمر مزحة سخيفة من إحدى صديقاتها، ثم أخبراني بكل ما حدث، طلبت من أختك أن تسأل صديقاتها لكنهن جميعا أخبرنها أنه ليس من الممكن أن يفعلن شيئا كهذا حتى ولو على سبيل المزاح، ثم طلبت من وليد أن يسأل صديقه عن البريد الإلكتروني لتلك الفتاة، من الغريب يا مها أن يكون هذا البريد الإلكتروني موجودا على حاسبك، هل تريدين توضيح هذا الأمر؟

ارتجف صوت مها وهو تحاول الثورة على انتهاكهم خصوصياتها في غيابها، لكن الكلمات تبعثرت على لسانها:

- أنا، لم أقصد، كيف؟

رمقها والدها بنظرة نارية ثم أشار لمنار.

- حسنا يا منار، يمكنك الخروج مع خطيبك الآن.

حياهم وليد وغادر بصحبة منار، بينما انسحبت مروة إلى غرفتها، وبقيت مها ووالداها، وبعد صمت طويل تكلمت الأم:

ـ كنت أعلم أنكِ وراء ذلك منذ أن تحدث وليد، لكنني كنت أكذّب نفسي، من المفترض أنك كبيرة وناضجة وتدركين خطورة هذه الأشياء في هذا الزمن الرديء، من المفترض أنك على وعي كاف بأنه لا خير يأتي من وراء الكذب والخداع، لقد طلبت من حسام مساعدتنا بصفته خبيرا في هذه الأشياء.

اتسعت عينا مها ذعرا، إذن فقد فاق الأمر نطاق أسرتها. أردفت الأم:

ـ كان حسام مهذبا بشكل كافٍ ليرفض وأخبرنا أن لديه صديقا يفهم في هذه الأشياء أفضل منه، لكن المشكلة كانت في فصلك عن هذا الجهاز الذي يسلبك حياتك.

هكذا بدأت الأمور في الاتضاح، لهذا كانت زيارة السويس المفاجئة، أمسك الأب طرف الخيط وأكمل:

ـ لم تكن صور منار فقط يا مها، وجدنا تلك المحادثات المؤسفة بينك وبين محمد وصفي، وجدنا الكثير من الأكاذيب والضلالات، لقد أطالت أمك فترة مكوثكما في السويس حتى أهدأ قليلا، السؤال الآن، كيف أمكنك فعل هذا؟ كيف أمكنك خيانة ثقتنا بك؟ وتعريض أختك وأسرتك لهذا الموقف السخيف؟ بل وكيف تعرضين نفسك لهذه المواقف المخزية؟

ـ لم أقصد، لم أقصد أي ضرر.

تقولها مها وهي على شفا البكاء.

ـ هذا ليس عذرا.

يقاطعها والدها بحدة، فتربت أمها على ذراعه ليتمالك أعصابه، فيردف:

ـ أنا لم أقصر مع أيّ منكن، أنتِ من قصرتِ معنا، لكن كل شيء سيتغير، سيلغى اشتراك الإنترنت، هذا الحاسب لن تستخدميه ثانية إلا للضرورة، وأعنى بالضرورة عثورك على عمل يستدعي استخدامك له.

ـ هذا ليس عدلا، أنا لست طفلة في سن المراهقة!

ـ لذا توقفي عن التصرف كطفلة في سن المراهقة يا آنسة يا كبيرة، ستساعدين والدتك في أعمال المنزل مثل شقيقتيك، ستجلسين معنا وتتحدثي مثل بقية خلق الله، لكِ مطلق الحرية في البحث عن عمل مناسب، إذا أردتِ استكمال دراستك فليس عندي مانع، ستعتذرين إلى أختك وخطيبها، هذه فرصة أخيرة

لكِ وأنصحك بأن تستفيدي من كرمي.

لم تجرب مها إحساس اعتصار ثعبان «البوا» للإنسان لكنه بالتأكيد يشبه ما تشعر به الآن، تتضارب الأحاسيس داخلها ما بين الغضب والإحراج، تومئ برأسها فيشير لها والدها بالانصراف، تدلف إلى غرفتها لتلقي بجسدها على الفراش وتبكي، هذا ظلم بالتأكيد، عقوبة لا توازي الجرم، لكنها لا تجرؤ على الاعتراض، تنظر إلى مكان الحاسب الخالي وتشعر كأنها لاجئ فقد وطنه، كيف يسلبونها ملاذها الوحيد؟ المشكلة الحقيقية أنها نسيت كيف كانت الحياة قبل الإنترنت، نسيت كيف تتحدث من دون كتابة، وكيف تتصرف من دون شاشة تختبئ خلفها، ستكون الأيام المقبلة غاية في الصعوبة، فليمنحها الله القوة كي لا تنفجر.

***

تحمل بسمة كوب القهوة الفخاري بين راحتيها طلبا للدفء، تشعر أن أصغر خلايا جسدها تتجمد إثر الطقس الشتوي المتأثر بمنخفض جوي ورياح شرقية إلى غربية، أم لعلها شمالية إلى غربية؟ من جنوب أوربا، أم لعله شرقها؟ هي لا تذكر بالضبط ما قالته مذيعة النشرة الجوية وهي تشير إلى خريطة الطقس التي لا تتماشى مطلقا مع ما تقول، فهي تتحدث عن عاصفة جليدية في منغوليا بينما تشير على الخريطة إلى كفر الشيخ، وهي لا تفهم النشرة الجوية مطلقا ولكن معنى كل هذه الترهات أن الطقس بغاية السوء، تنظر إلى شاشة الحاسب، لا يزال أمامها الكثير من العمل ولكنها حقا في غاية الإرهاق، وكل أملها في الحياة أن تخلع حذاءها وتدس قدميها في جورب صوفي، ثم تنام ملء عينيها تحت عدد لا بأس به من الأغطية الثقيلة، ياه! لكم من أحلام بسيطة يمكنها أن تحيل حياتنا إلى جنة شتوية دافئة، يتثاقل جفناها ويبدو أن القهوة فقدت مفعولها تماما، تضغط على زر الإيقاف، وتضع كوب القهوة جانبا وتحمل حقيبتها وتغادر المكتب الخالي.

السيارة مصابة بعطل ما ـ ككل السيارات التي تهوى التمارض عند الحاجة إليها ـ لذا فستحل ضيفة على سائقي التاكسي حتى ميسرة، تشير إلى إحدى السيارات وتملي على السائق العنوان فيفكر قليلا ويتأمل في ملكوت الله ثم يومئ برأسه موافقا، فتلقي بجسدها داخل السيارة التي لم تنس أن تخزن رقمها في هاتفها، وهي وسيلة ذكية للغاية للتعرف على السيارة إذا قرر السائق قتلها وإلقاء جثتها في الطريق الصحراوي! يثرثر السائق عن الصقيع وكيف أن ذلك

غضب من الله علينا لأن «الدنيا بقت وحشة يا أبلة» ترنو بسمة إلى الشارع من خلف الزجاج المغلق وهي تردد:

- أجل، بالطبع يا رئيس.

الشوارع شبه خالية على غير العادة في هذه الساعة الباكرة من الليل، لكن بالفعل هذا الطقس لا يشجع إلا على التدثر جيدا والنوم، تركت مكتبا خاليا وستذهب إلى بيت خالٍ لتقضي ليلة شتوية باردة واحدة، لكنها اعتادت أن تكون وحدها، لديها الكثير من الأعمال المتراكمة ولديها الكثير من الخطط التي تحتاج إلى قرارات جريئة، لكن المشكلة في التوقيت، دوما تكون المشكلة في التوقيت، وهي بالفعل لا تطيق الانتظار.

لا يتوقف السائق عن الثرثرة كعادة سائقي التاكسي الأثيرة، وكأن كلا منهم بحاجة إلى ميكروفون ومحطة إذاعية خاصة، لكنها لا تلقي بالا وتكتفي بالتأييد المطلق لجميع أقواله، تراودها أحيانا الرغبة في السفر، بل ربما في الهجرة، ليس لديها ما تفتقده في مصر على أي حال، ولا تعتقد أن أحدا سيفتقدها، لكنها لن تفعل ذلك مطلقا، لديها هدف وستسعى إلى تحقيقه بكل قوتها، ستثبت لنفسها ولأبويها وللجميع أنها أقوى مما تصوروا، تتصل بها أمها أحيانا لاستئناف دور الأم بعد توقف دام أكثر من ٢٠ عاما، لكن الطفلة التي تركتها لجدتها منذ عقدين من الزمن لم تعد موجودة في الجوار، أما أبوها فلم يحاول أصلا معرفة ما حل بها، لقد تزوج كلاهما وكوّن أسرة جديدة متناسيا ما حل بالقديمة، وكأن وجودها في حد ذاته كان تذكارا مأساويا لخطأ كبير، لديها إخوة وأخوات لكنها لا تعرفهم ولا يعرفونها ولا يبدو أن أحدا يأبه، غير أنها لا تحتاج لكل هذا، لقد عوضها الله بجدتها التي منحتها حنانا ودفئا لم تكن تعلم بوجوده قبل انتقالها للعيش معها، ١٠ سنوات من المحبة الخالصة هي ما شكلت وجدان بسمة وأنقذتها من سموم الكثير من العقد النفسية، يوما ما ستُهدي كل نجاحها إلى روح جدتها، هي تعرف ذلك.

أقرب شكل للأسرة عرفته هي أسرة سارة، لذا هي تحبها، تحب منزلها، تحب حالة الدفء التي افتقدتها برحيل جدتها، وهذا ما يجعلها تحاول حمايتها بشكل ما، هي تعلم مدى هشاشتها منذ تعرفها على ذلك الوغد، منذ أن رأته وهي تعلم أن لا خيرَ سيأتي من ورائه، وصدق ظنها، تلك النظرة التي التمعت في عينه يوم قابلته تعرفها جيدا، حاولت مرارا أن تثني صديقتها البلهاء عن الاستمرار في هذا الوهم لكن سارة كانت مصابة بأعراض الحب الأعمى كاملة، لم تكن لتصدق حرفا

ضد محمود، أمثال محمود يصيبون بسمة بالغثيان، أشباه الرجال الذين لا يصلحون لأي شيء إلا لزيادة مبيعات المناديل الورقية وأدوية الاكتئاب، ومنذ أن رأته في بهو الفندق وهي لا تستريح لهذا اللقاء، على الرغم من أن سارة لم تره لكنها تشعر بالقلق، ماذا لو أقدم على فعل شيء غبي لمجرد استفزازها؟ هل تخبر سارة بما تعلمه، أم تتجاهل الأمر برمته؟ هي تعلم جيدا أن الأخيرة لم تشف تماما من سمومه التي بثها في قلبها أعواما طويلة، لقد شعرت بالأمل حين قابلت يوسف لأنه من الطراز الذي يجذب سارة عادة، لكن حدسها خانها هذه المرة، غير أنها ستجد حلا، هي دوما تجد الحلول.

يتوقف السائق في العنوان، تمنحه بسمة أجرته وتترجل من السيارة، تحكم إغلاق معطفها حول جسدها وتخطو إلى البناية بخطى سريعة، وهي تتمنى ألا تطول هذه الموجة الباردة.

***

انتهت الموجة الباردة بعد ٣ أيام من المناخ القطبي، وعادت الحياة إلى روتينها المعتاد، أغادر المنزل في موعدي اليومي وأصل إلى العمل قبل الجميع كعادتي لأجد يوسف ينتظرني أمام مكتبي، أنظر إلى الساعة لأتأكد من الوقت، ما زال باكرا، أضع حقيبتي على المكتب وأتساءل:

- ما هذه المفاجأة السارة؟

يبتسم محييا:

- آسف لم أكن أعرف مواعيدكم.

هذه النبرة الهادئة لا تمت ليوسف بصلة، هذا ليس يوسف.

- لا بأس يا دكتور.

يبتسم مرة أخرى ثم يضع أمامي مظروفا كبيرا.

- بناء على توصية من يوسف جئت إليك في عمل.

ألتقط المظروف وألقي نظرة على الأوراق الموجودة به.

- هذه وثائق طبية، تريد ترجمتها إلى الفرنسية؟

- لا، كنت أريد ترجمتها إلى العربية.

- حسنا، لكنني في الحقيقة مشغولة جدا هذه الأيام، فإذا كان بإمكانك الانتظار أسبوعا فسأقبلها.

- لا بأس، يمكنني الانتظار.

- عظيم.

ينهض موشكا على المغادرة ثم يردف كأنما تذكر شيئا:

- لقد دونت رقمي في ظهر الورقة الأولى، يمكنك الاتصال بي في أي وقت إذا كان لديك أي استفسار.

- حسنا، شرفتنا بزيارتك يا دكتور.

- الشرف لي.

ثم يستدير مغادرا لتقابله بسمة في أثناء خروجه، تتبادل معه بضعة عبارات ثم ينصرف، تتجه بسمة إليّ بابتسامة جذلة:

- لطيف هذا الطبيب.

ثم تردف وهي تغمز:

- وعزب.

أرد بلا مبالاة:

- وما شأني؟

تلتقط المظروف من أمامي وتمارس هوايتها الأثيرة في اللهو بأغراضي.

- واجبي كصديقة مخلصة يحتم عليّ أن ألفت نظرك إلى كل فرصة جيدة، وهذا الشخص فرصة جيدة صدقيني، هذا عملي، ولن تجدي حكما على الناس أفضل مني، ألم أحذرك مرارا من ذلك الكريه؟

بالطبع تشير إلى محمود، الحق إن بسمة لم تكن لديها أي ذرة تعاطف مع محمود من أي نوع، كانت تتعامل معه بمزيج من الازدراء والحنق، وكان محمود بدوره يمقت بسمة، وطالما طلب مني قطع علاقتي بها وكان يردد دوما أن لها

«تأثيرا سلبيا» في حياتي، لكنها كانت على حق، كل ما أخبرتني أنه سيحدث، حدث.

- لا أريد الحديث في هذا الموضوع.

تضع المظروف على المكتب.

- ولا أنا، لكن هذا الموضوع يستحق المحاولة.

تقولها وهي تشير خلفها.

- إن شاء الله.

أقولها باقتضاب لأضع نهاية مفتوحة لهذا الحوار.

- حسنا، لن أضغط عليكِ، لكن عديني بأن تمنحيه فرصة.

أترك ما بيدي وأنظر إليها بدهشة:

- أي فرصة يا فتاة؟ أنا لم أر الرجل في حياتي إلا مرتين، مرة حسبته شخصا آخر والمرة الثانية تحدثنا لمدة ٥ دقائق في عمل!

تضحك ضحكة عالية.

- لا تزالين ساذجة، ستمر الأيام وتقولين بسمة كانت على حق.

تقولها وتغادر إلى مكتبها، أفتح المظروف لألقي نظرة على الأوراق مرة أخرى، أقلب الورقة الأولى لأجد رقم الهاتف، هل أسجله في هاتفي؟ ألتقط الهاتف وأبدأ في نقل الرقم، ثم ألغي العملية كلها وألقي الهاتف في الحقيبة، أنظر إلى بسمة التي تتحدث مع أحد موظفي الموارد البشرية بحزم ينافي ما كانت تفعله عند مكتبي منذ دقيقة واحدة، كيف تتبدل هذه الفتاة بهذه السرعة والسهولة؟ ثم أنقل نظري إلى المظروف الأنيق الملقى أمامي، هل عليّ أن أشعر بالخطر؟

***

- المشكلة أنني لم أعد أذكر كيف كانت حياتي من دونه يا بسمة.

- كانت أفضل.

- لا، لم تكن حياة.

ـ كيف تقولين ذلك يا سارة؟ أنت بلهاء تماما يا عزيزتي، أنا أعرف هذا النوع جيدا، يبدأ ناعما كالحية، يملأ أذنيك بعذب الكلام، ويعلم الله أنه يجيد الكلام، يدغدغ أحلامك بوعود لن يحفظها، سوف يملك قلبك ثم يتسلل إلى باقي حياتك ليفرض قوانينه، لا ترتدي هذا فأنا أغار، لا تخرجي كثيرا فأنا أخاف عليك، لا تتحدثي مع هذا أو مع تلك فأنا لا أرتاح لهم، وهلم جرا، وستنصاعين كالبقرة لأنك تريدين إسعاده، لتستيقظي ذات يوم وحدك، لا أصدقاء، لا عمل، لا اهتمامات، لا شيء سواه، شمس عالمك التي تدورين في فلكه من دون تفكير، وعندها سيعلن ضيقه من احتياجك الدائم وملاصقتك له، ويخبرك كلما رآك أنك تغيرتِ وأنك لست الفتاة التي عرفها.

مع كل كلمة تنطقها كان قلبي يقع في قدمي، لقد كنت بالفعل في منتصف هذا الطريق، وعلى الرغم من أن كلامها كان يدق ناقوس الخطر فإنني رفضت التصديق.

ـ لا يا بسمة، محمود يختلف عمن تتحدثين عنهم، إنه غيرهم.

تهز رأسها استنكارا.

ـ كما تشائين، فقط لا تقولي إنني لم أحذرك.

أنظر إليها، تبدو واثقة مما تقول لكنني أكثر ثقة في ما أشعر به، لن يكون محمود هكذا قط، يبدو أنه كان محقا خين أخبرني أنه يعتقد أن لبسمة تأثيرا سلبيا، وحدها الأيام ستقرر.

وكان لدينا فائز سيداتي آنساتي.

بسمة كانت محقة.

والخاسر كان أنا.

الفصل السابع

أخيرا انتهيت من ترجمة الأوراق الخاصة بعمر، بحثت عن تلك الورقة التي تحمل رقمه واتصلت به.

- دكتور عمر؟ معك سارة وصفي من .Master Minds

- أهلا سارة كيف حالك؟

- الحمد لله، أتصل لأخبرك أن الترجمة انتهت ويمكنك المرور بنا للحصول عليها.

- جميل، لا أدري كيف أشكرك، لكن ماذا عن المعاملات المادية؟

- حين تصل ستجد الأوراق ومعها إيصال بالمطلوب دفعه، لا تقلق.

- حسنا، هل سأراك؟

ما هذا السؤال؟!

- لا أدري، إذا كنت موجودة، بالتأكيد.

- هذه ٣ إجابات متناقضة.

ما هذه الحذلقة؟

- حقا؟ لم أنتبه، على أي حال أتمنى لك يوما طيبا.

وأنهي المكالمة قبل أن يتسنى له الرد، لديه نفس جينات «اللماضة» الخاصة بأخيه يبدو أنها وراثة!

***

تمر الأيام رتيبة خانقة، تمر بلا أي جديد فتوشك مها على الانفجار حنقا، توقعت أن ينسى الجميع مع حدث بعد فترة ويعود كل شيء كما كان، لكن ذلك لم يحدث. على استحياء بدأت تصلح ما أفسدته مع أسرتها لكنها كانت تشعر بالضيق، صحيح أنها ما زالت تتواصل مع عالمها الافتراضي خلسة عن طريق هاتفها، لكن لم يكن هذا التواصل يشبع حاجتها في جرعات عالية التركيز من الإنترنت، لذا لم يكن هناك بد من البدء في البحث عن عمل مرة أخرى، وكلما بحثت أدركت أنها تأخرت، هكذا لم يعد أمامها إلا آخر الحلول المتاحة.

- بابا، أريد أن ألتحق بدورة تدريبية في اللغة الإنجليزية.

- أين؟

- هناك مركز لغات جيد أعرفه.

- وما المطلوب؟

- رسوم الدورة، ليس معي أي نقود.

- حسنا، لكن أرجو أن تستفيدي من هذه الدورة وألا تكون مجرد ذريعة للهروب من مسؤوليات المنزل.

- بالطبع، سأذهب للحجز غدا.

هكذا تمت المهمة بنجاح، تعود مها إلى غرفتها لتستلقي في فراشها وتتخيل الأيام المقبلة، ستذهب إلى ذلك المركز الذي رأت إعلاناته منذ فترة، ربما يصادفها مدرس وسيم ينجذب إليها، وهناك دائما احتمال عثورها على فتى أحلامها من بين زملائها، أو قد يراها أحد رواد المركز المتحمسين فيرشحها لأحد أقاربه، تنتظر غيمة مطيرة تنعش قلبها الذي يوشك على الموت عطشا، لم تكن مها يوما من المتفوقات اللاتي يتحدثن كثيرا عن تحقيق الذات والطموح، لم تكن ممن يردن أن يحكمن العالم أو يصبحن نجمات مجتمع يسطعن تحت أضواء زائفة، هي أبسط من كل ذلك، جل ما تريده هو الوقوع في الحب والزواج، تريد قصة تحكيها بصوت حالم، تريد القصة كما علموها في الروايات والأفلام، تريد الورد الأحمر والشموع ومشهد الجري البطيء على شاطئ البحر، تريد حفل الزفاف الذي سيتحدث عنه الجميع شهورا، سترتدي ثوبا أسطوريا كالأميرات، ستدعو إلى الحفل كل من سخر منها ومن أحلامها، كل من حادثتهم واختفوا بعد مقابلتهم لها، ستدعو محمد وصفي ليرى ماذا أضاع من يديه، ستدعو بسمة وستجعلها تنظم حفل الزفاف بنفسها، سترقص على إيقاع أغنيتها المفضلة وستكون سعيدة، أجل، من حقها أن تشعر بالسعادة، من حقها أن يكون لديها ما يسعدها، وليس من حق أحد أن يسلبها ذلك، تحلم مها وتتسع ابتسامتها مع اتساع رقعة أحلامها.

أقف في الشرفة حاملة كوبا كبيرا من الشاي الثقيل بالنعناع، أرى حسام يركن سيارته ويهم بالدخول إلى البناية فألتقط أحد مشابك الغسيل وألقيه فوقه، ليصل بعد رحلة ست طوابق إلى سقف إحدى السيارات المتوقفة أمام البناية

فيرفع حسام وجهه ليرى من هذا الطفل السخيف الذي يلهو بالمشابك، ليطالعه وجهي الملائكي بابتسامة أكثر ملائكية فيكور يده بجانب رأسه ويحركها بدلالة «هل جننتِ؟» أحرك كفي المفرودة في الهواء بمعنى «قليلا» وينتهي درس لغة الإشارة عند هذا الحد ليصعد أخي الحبيب إلى المنزل، أرتشف الشاي الساخن قبل أن يبرد، وأسمع حسام يتبادل الحديث مع ماما في الخارج ويدلف بعدها إلى غرفتي.

- هل أصابتك عقدة طفولة متأخرة؟

يقولها وهو يلقي بجسده على أحد المقاعد في الشرفة، فأناوله كوب الشاي، يرتشف قليلا في استمتاع وهو يغمض عينيه.

- تبدو مرهقا.

- تعجبني فيكِ قوة ملاحظتك!

يقولها ساخرا وهو يواصل ارتشاف الشاي مغمض العينين، فأجلس إلى جواره.

- لا أذكر آخر مرة رأيتك في إجازة.

- ولا أنا.

يقولها وهو يناولني الكوب ويرفع ساقيه على الطاولة الصغيرة.

- أعمل على مشروع كبير حاليا، ربما بعد إنهائه سألبي دعوة محمد إلى قضاء بعض الوقت في الإسكندرية، أو أذهب إلى العين السخنة مع بعض الأصدقاء.

- هل يمكنني مرافقتك؟

- أنا أهرب منك أساسا.

فأضربه على كتفه.

- لو بحثت العالم بأكمله لن تجد أختا مثلي.

- وهذا من رحمة الله بالعالمين.

- ظريف جدا.

يضحك وهو يريح رأسه إلى الخلف.

ـ كيف حالك؟ وأخبار العمل؟ هل من جديد؟

ـ ليس بالضبط، نفس الملل، لكن هناك ضغطا كبيرا هذه الأيام مع انتهاء العام

يهز رأسه متفهما.

ـ أجل، لا أحب هذه الفترة إطلاقا إذ...

يقطع حديثه صوت ارتطام جعله يقفز من مجلسه ويهرع إلى الخارج، بينما أتجمد مكاني لثوانٍ فأسمع صوته يناديني، يصيبني الارتباك بنوع من الشلل، أضع الكوب من يدي وأعدو إليه ثم أقف بلا حراك، على الأرض تتمدد ماما بينما يحاول حسام إفاقتها ثم ينظر إلي صارخا:

ـ مروة، بسرعة.

أنظر إليه بغباء تام، فيصيح بي:

ـ أفيقي يا سارة، أحضري مروة حالا.

لا أدري كيف تحملني قدماي لكنني أذهب وأفتح الباب وأتجه إلى الشقة المجاورة وأدق الجرس بلا انقطاع، ليطالعني وجه طنط سعاد المذعور:

ـ ماذا هناك؟

ـ ماما، أريد مروة.

تنادي طنط سعاد على ابنتها وتتجاوزني لتدخل بيتنا المفتوح بينما تهرع مروة حاملة حقيبتها الطبية، وألحق بهم لأراقب ما يحدث بعقل يوشك على فقدان الوعي.

«... وبالطبع بعد أبي أصبنا جميعا بفوبيا حدوث أي مكروه لأمي، لسنا صغارا، حسام أنهى دراسته وتجنيده ويعمل مصمم ويب وبارع في عمله كذلك، أما أخونا الأكبر محمد فتزوج قبل وفاة والدي ببضعة أشهر ويعيش في الإسكندرية مع زوجته، المفترض أننا أشخاصا في مرحلة النضج تستطيع تحمل المسؤولية وفتح بيوت، لكن من قال إن هذه القاعدة تسري عند الحديث عن الوالدين؟ لقد فقدنا أبانا وأصبحنا أيتاما، لو ـ لاقدر الله ـ حدث أي مكروه لأمنا فسوف ننتقل إلى فئة مقطوعين من شجرة ولسوف يزيد ابتعادنا ونصير أخوة بالاسم فقط...».

- غيبوبة سكر.

تقولها مروة وهي تتساءل عن تاريخ إصابة ماما بمرض السكري، ومرات حدوث هذه الغيبوبة، ويجيبها حسام وهو يمنحها أسماء الأدوية التي تستخدمها، بينما أراقب كل ذلك وأرتجف، أشعر بأن الأرض تتهاوى تحت قدمي، أنظر إلى ماما بينما تفرغ مروة المحقنات في جسدها، أنظر إلى دموع طنط سعاد وذعر حسام وهو يساعد مروة، أنظر إلى صورة أبي المعلقة على الحائط، غرفة حسام ومحمد، صوت أبي يتردد في رأسي:

- لماذا يا سارة؟ هل قصرنا معكِ في أي شيء؟ كيف تفعلين بنا هذا؟

- أنت السبب، أنا أكرهك، أكرهكم جميعا.

خيبة أمل أبي، استنكار أمي، غضب أخي.

- بابا مات يا سارة، مات، هل ارتحتِ؟

صوت حسام الغاضب يهدر خارج غرفتي بينما تصرخ أمي من بين دموعها «كفى!»

- يجب أن ننقلها إلى المستشفى، سأبدل ملابسي وآتي معك.

تقولها مروة وهي تحمل حقيبتها وتهرع إلى شقتها، بينما يطلب حسام من طنط سعاد مساعدته في توصيل ماما إلى المصعد، كل شيء يحدث بسرعة.

- خير يا حبيبي إن شاء الله.

تقولها جارتنا الطيبة وهي تربت على كتف أخي، بينما تستدعي مروة المصعد وتنادي عليهم، يقف والدها على باب شقتنا يعرض خدماته، ألمح منار ومها تقفان على الباب تراقبان ما يحدث، الطقس يزداد برودة، كل شيء حولي يدور بلا هوادة، أبي يمتلئ حزنا، أنا السبب، لم أعد أستطيع الوقوف، الظلام يهبط حولي، ومن دون أي إنذار أتهاوى أرضا.

***

هل من الممكن أن يموت أحد من الملل؟ يتردد السؤال في عقل محمود وهو يقاوم رغبة عارمة في التثاؤب، بينما يستمر رئيسه في الحديث عن الاقتراحات المطروحة لتوسيع رقعة الأطباء الذين يستخدمون منتجات شركتهم، ويبدو أنه

سيستمر في الكلام إلى قيام الساعة. يعتبر محمود نفسه أحد المحظوظين القلائل الذين وجدوا سبيلهم إلى هذه الشركة العريقة، لكن استمراره في عمله ليس له علاقة بالحظ، مهاراته وقدراته هي ما ساعدته في الاستمرار والترقي، سنوات قلائل من العمل الشاق والأعمال الجانبية المربحة آتت ثمارها بشكل لم يكن هو نفسه يتوقعه، لم تكن تلك بالضبط الحياة التي خطط لها، كانت خطته أبسط بكثير، يتخلص من عبء سارة ويفرد جناحيه ليطير بعيدا عن مصر ومن فيها، الصدفة فقط هي ما قادته للتقديم في هذه الوظيفة، على الرغم من كل شيء لا تزال داخله رغبة في السفر والابتعاد، لكنه لا يستطيع الآن المخاطرة بفقدان ما وصل إليه، المثير للدهشة حقا أن هذا الشعور لم يراوده مطلقا عندما قرر الانفصال عن سارة، لم يشعر أن فقدانها قد يكون مخاطرة، بل على العكس، يشعر بالحنق من سيل الذكريات الذي احتل مساحة مقلقة من تفكيره مؤخرا، لقد أثارت رؤيته للفتاتين كثيرا من التساؤلات داخله.

كيف تتمكن هذه الفتاة من إيقاظ مشاعره هكذا؟ على الرغم من أنه لم يرها ثانية بعد تلك المرة في بهو الفندق، لم يقدم على شيء مجنون كالذهاب إلى منزلها أو عملها، لكنه يتحقق من صفحتها الشخصية على «فيسبوك» بشكل شبه يومي، هي ليست في قائمة أصدقائه لكن يبدو أن إعدادات الخصوصية في صفحتها تجعل محتواها متاحا للجميع، يشعر أحيانا أن ما تكتبه يكون موجها له بشكل ما، تلك الرسائل الضمنية التي تذكره بأشياء لا يعرفها سواهما. هل تعرف أنه يزور صفحتها لذا تركتها مفتوحة على مصراعيها؟

وهناك التساؤل الأكبر، هل عرفت سارة بما فعلته بسمة؟ تبدوان مقربتين أكثر من ذي قبل فهل أخبرتها؟ ينتزعه صوت مديره من شروده وهو يوجه إليه سؤالا:

- ما رأيك في هذا الاقتراح يا محمود؟

يرد محمود بتلقائية وبوجه يبدو عليه الاهتمام:

- لا بأس به، لكنني بحاجة إلى درسه جيدا قبل إبداء أي رأي نهائي.

- حسنا، سأنتظر تقريرا مفصلا.

يقولها المدير في إشارة إلى انتهاء الاجتماع، ينهض محمود من دون أدنى فكرة عما كان يتحدث عنه، ولكنه سيجد طريقة ما لتقديم ذلك التقرير، ونسيانها.

***

أفتح عيني بصعوبة ليطالعني وجه مروة، ماذا حدث؟ أتذكر فأصيح:

- ماما!

تهدئ من روعي:

- هي بخير لا تقلقي، ستمضي الليلة في المستشفى وتعود غدا إن شاء الله، لكن يجب عليها الانتظام في تناول أدويتها، داء السكري لا يمزح.

أعتدل في فراشي الذي لا أملك أدنى فكرة عن كيفية وصولي إليه.

- حسام معها؟

- أجل، وماما أيضا، لا تقلقي.

تقولها وهي تضع جهاز قياس ضغط الدم حول ساعدي، وتردف:

- عليكِ النوم جيدا والأكل جيدا أيضا، يبدو أنك تهملين في صحتك، صدقيني كل ما تفعلينه الآن لن ينساه جسدك، وستحصدين ثمار الإهمال المريرة في ما بعد.

تقولها وتنهي معاينتها السريعة لي.

- لا تفكري كثيرا، سأذهب الآن، إذا كنتِ تخشين المبيت وحدك يمكنك المجيء معي.

- شكرا يا مروة، تصبحين على خير.

تربت على ذراعي وتغادر المنزل، فأنهض وأخرج إلى غرفة المعيشة، أنا وحدي بالفعل، للمرة الأولى في حياتي أقضي الليل بمفردي، أنظر إلى غرف البيت الخالية وأشعر بالوحشة، نحن بالفعل لا نشعر بقيمة ما نملك، نبحث دوما عن المفقود وننسى تقدير الموجود، أبحث عن هاتفي وأتصل بحسام.

- كيف حال ماما يا حسام؟

- لا تقلقي، هي بخير، سنعود في الصباح، كيف حالك أنت؟

- أنا بخير، عودا سريعا.

ـ نامي الآن وسنعود قبل أن تستيقظي، سلام.

من أين يأتي النوم يا حسام؟ ألقي نظرة على الساعة، تقترب من الثالثة فجرا، لا أستطيع البقاء هكذا، أدلف إلى الغرفة لأبدل ملابسي، أهبط الدرج لأغادر البناية وأتجه إلى سيارتي، أجلس خلف المقود وأديرها وأنتظر حتى يكمل البنزين دورته بها، ألتقط هاتفي وأتصل ببسمة، تجيب بصوت ناعس:

ـ هل تعلمين كم الساعة؟

ـ أجل، أنا في طريقي إليك.

ـ ماذا؟ ماذا حدث؟

ـ لا شيء، حين أصل سأخبرك بكل شيء.

أبدأ في التحرك في الشوارع شبه المظلمة، الطقس في غاية البرودة لكنني لا أهتم، فداخلي حمم وبراكين، بعد نصف ساعة تقريبا أصل إلى بيتها، مر وقت طويل منذ آخر زيارة إليها، أراها في الشرفة ما أن تلمحني حتى تعود إلى الداخل، أوقف سيارتي وأصعد الدرج لأجدها في انتظاري على الباب وعلى وجهها مزيج من النعاس والدهشة والقلق.

ـ هل أنتِ بخير؟

أومىء برأسي إيجابا فتفسح لي للدخول.

ـ اجلسي، ماذا حدث؟

ألقي بجسدي على الأريكة وأقص عليها ما حدث.

ـ لماذا لم تتصلي بي يا سارة؟ تعرفين أن بإمكاني المساعدة.

ـ أنا لا أدري حتى الآن كيف وصلت إلى الشقة المجاورة أصلا.

ـ لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام، هل تريدين النوم؟

ـ لا، إذا كنت تريدين النوم فاذهبي، أنا آسفة لأنني أيقظتك، لكنني لم أستطع البقاء في المنزل وحدي.

ـ لا عليك، سأصنع لنا قدحين من القهوة وننتظر ساعتين ونذهب إلى المستشفى للقاء والدتك قبل الذهاب إلى العمل، وإذا كنتِ لا تريدين الذهاب إلى

العمل غدا، أقصد اليوم، يمكنني أن...

أقاطعها بيدي:

- لا، لا، العمل أفضل دواء في مثل هذه الحالات صدقيني.

- كما تريدين، دقيقة واحدة ويكون لديك أفضل كوب قهوة في مصر.

تقولها مازحة على أمل تحسين مزاجي، لكنني بالفعل لا أستطيع الابتسام حاليا، تتركني لتحضر القهوة فأدور بعيني في المكان، لا تزال الشقة تحتفظ بطابعها، لم تغير بها بسمة أي شيء، الكثير من الصور لها ولجدتها، كيف لم أنتبه إلى عدم وجود أي صورة لوالديها من قبل؟ وكيف تعيش وحدها كل هذه السنوات؟ أنا لم أستطع قضاء ليلة واحدة بمفردي، أنهض من مجلسي وأتجه إلى الصور، لم تختلف بسمة كثيرا، كانت طفلة جميلة ثم مراهقة جميلة والآن شابة جميلة، أسمعها تضع الأقداح على الطاولة وتتجه نحوي.

- جميلة هذه الصور.

تحمل إحداها وتبتسم.

- هذه صورتي المفضلة.

أنظر إلى الصورة التي تحملها، بسمة الطفلة تجلس بساق مفرودة محاطة بجبيرة وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة، وحولها كثير من الأطفال، بينما تقف جدتها خلفها تحيطها بذراعيها وتضحك، تردف بسمة:

- كنت في الثامنة، وقعت في أثناء اللعب مع أطفال الجيران وأصبت بشرخ في ساقي، واضطررت إلى تجبيرها لمدة شهر، أحالت جدتي المنزل إلى ملعب كبير لنا، كي لا أشعر بالحزن لأنني لا أستطيع النزول واللعب معهم.

- يبدو أنها كانت تحبك كثيرا.

تضع بسمة الصورة وألمح شبح دموع في عينيها.

- لم يحبني أحد مثلها، رحمها الله، هيا قبل أن تبرد القهوة، ولا تنسي أن تتصلي بحسام وتخبريه أننا سنذهب إلى المستشفى بعد قليل.

ألقي نظرة أخيرة على الصور ثم أتجه إلى الأريكة، ما زلت أشعر أن ما حدث هذه الليلة كان حلما أو بالأحرى كابوسا مزعجا، لكن حمدا لله أنه انتهى على

خير، فقط أتمنى ألا تبدأ أمي رحلة «أريد أن أفرح بك قبل أن أموت» معي، ستكون هذه مأساة حقيقية.

***

أنظر إليه وهو يرسل رسالة ما عبر هاتفه، هل تعرف ذلك الإحساس الكريه حين تنظر إلى شخص ما تعرفه جيدا، لكنك تشعر أنه تحول إلى شخص آخر بطريقة ما؟ نفس الملامح، نفس الصوت، لكنه ليس نفس الشخص، كان هذا هو ما أشعر به مؤخرا، ينتهي من رسالته فيضع الهاتف أمامه وينظر إليّ في انتظار ما سأقول، فأسأله:

- كيف حال العمل الجديد؟

باقتضاب شديد كعادته المستحدثة يجيب:

- بخير.

أومىء برأسي ونظر إلى الشارع عبر زجاج المقهى، يرتشف قهوته بصمت ويبدو أنه في انتظار أن أعلن عن رغبتي في الانصراف.

- لم تعد تسألني عن عملي؟

- هل من جديد؟

- ليس بالضبط، لكنني أواجه ضغطا عصيبا في المنزل، ماما تعتقد أن هذا العمل يقف عائقا بيني وبين الزواج.

تتبدل ملامحه على ذكر الزواج، فيواصل ارتشاف القهوة ثم يقول:

- إذا كان هذا العمل لا يريحك، ربما من الأفضل أن تبحثي عن عمل آخر.

هكذا، يمنحني إجابة عامة لا تسمن ولا تغني من جوع، هو يعرف جيدا ما أريد الحديث عنه لكنه كالعادة يتجنب هذا الحديث، أنظر مباشرة إلى عينيه:

- هل تحبني؟

- هل هذا سؤال؟

- هذه ليست إجابة.

- تعرفين أنني أحبك.

- إذن لماذا لا تجيب ببساطة شديدة «أجل، أنا أحبك»؟

- مهلا، هل هذه مقدمة للشجار؟ لأنني يا عزيزتي لست في مزاج ملائم للنكد حاليا.

- أنا أريد أن أطمئن فقط يا محمود.

- وما الذي لا يطمئنك؟

- تغيرك في الفترة الأخيرة، أنا لم أعد أعرف أي شيء عنك تقريبا، تختفي معظم اليوم، نتحدث عدة دقائق بالهاتف، هذا إن تحدثنا، لم تعد تهتم بالسؤال عني أو عن أحوالي، وكأنني... وكأنني لست موجودة.

ينظر إليّ من دون أي تعبير من أي نوع، يعتدل في جلسته ثم يقول:

- هل هذا تأثير بسمة؟

- ماذا؟ ما دخل بسمة بهذا؟

- لا أدري، أشعر أن هذا الهراء هو نتاج ثرثرة فتاتين تشعران بالفراغ.

- هراء؟!

- بالطبع، ماذا تريدين يا سارة هانم؟ أن أترك عملي والتزاماتي وأجلس لأتحدث معك طوال اليوم؟

- أنا لم أقل هذا، أنا...

- أنتِ لا تعين فكرة أن الزمن تغير، لم نعد صغارا، هناك التزامات ومسؤوليات.

أنظر إلى وجهه الغاضب وأشعر بالخوف، هذا ليس من أحببت، بصوت مهزوم أساله:

- وهل أنا من ضمن هذه الالتزامات؟

- ماذا تريدين يا سارة؟ تريدين أن أتقدم لخطبتك؟ حسنا، سأتقدم، لكن ضعي في حسبانك أنني غير مستعد ماديا للزواج حاليا، كما يجب أن تدركي أن الوضع لن يتغير عما هو عليه الآن.

أشعر بقلبي يتهشم ككأس زجاجي أصابته صخرة صماء، أنظر إليه ولا أدري ماذا أقول، بخاطري تدور الكثير من الكلمات لكنني صرت أخشى التحدث، دوما يجد في حديثي ما يغضبه، أنظر إلى حركاته المتململة فأدرك أن وقتي انتهى، لذا أبادره:

- لقد تأخرت، أريد الانصراف.

من دون أي محاولة لإبقائي مدة أطول معه - ولو على سبيل المجاملة - يشير للنادل ويحمل هاتفه ويستعد للمغادرة، نغادر المقهى ويتجه كل منا إلى سيارته من دون كلمة أخرى، تتحرك سيارته لتمر بجانبي ليتجاوزني من دون أن ينظر إليّ، أراقب السيارة المبتعدة في مرآتي، أضع رأسي على المقود وأنهمر في البكاء.

الفصل الثامن

عادت أمي إلى المنزل ووضعنا لها جدولا حازما لتناول دوائها وتنظيم طعامها، واتفقنا على عدم إخبار محمد بما حدث كي لا ينزعج، ومع عودتها عادت الروح إلينا، أخبرني حسام برغبته في اصطحابها إلى الأراضي المقدسة، فأعجبتني الفكرة لكن كان ردها:

- بعد أن تتزوج سارة.

هكذا ربطت أمي بين زواجي واستمرار الحياة!

كان روتيني المحبب يمر بنفس الوتيرة الخانقة، العمل يبتلع معظم ساعات يومي، حسام مشغول بعمله، محمد يتصل بنا كل فترة ليطمئن علينا، اتصل بي يوسف ليطمئن على أمي، انتهت السنة واستقبلنا سنة جديدة بلا أي حماس من أي نوع، أخبرتني بسمة عن حفل تنظمه لمناسبة العام الجديد، لكنني اعتذرت بحجة أنني لست في مزاج ملائم للاحتفال.

أغادر العمل وأخبر أمي أنني سأتأخر، أتجه إلى أحد المطاعم التي أحبها وأقرر أن أدعو نفسي إلى الغداء! أجلس لأتأمل قائمة الطعام ليرن هاتفي برقم من دون اسم، فأجيب:

- ألو.

- سارة كيف حالك؟

أنظر إلى الرقم مرة أخرى، لا أتذكر صاحبه، فأجيب بارتباك:

- الحمد لله.

- هل ما زلت في العمل؟

- لا.

يبدو أنه شعر بأنني لا أملك أي فكرة عن هويته فيريحني من العذاب:

- معك عمر فاروق، يبدو أنك لم تحفظي رقمي.

عمر فاروق؟ يبدو اسما مألوفا، أخيرا أتذكر، عمر، شقيق يوسف.

- يبدو أنني نسيت يا دكتور، معذرة، كيف حالك؟

- الحمد لله، لدي بضع أوراق كنت أرجو ترجمتها اليوم إذا أمكن.

- اليوم! المشكلة أنني غادرت المكتب، ألا يمكن أن تنتظر إلى الغد أو ترسلها عبر البريد الإلكتروني؟

- صعب جدا، أنا آسف، أعلم أنك مشغولة لكنني أعتمد عليك.

أفكر قليلا، حسنا بضع ورقات ليست مشكلة، ثم إنني لا أفعل شيئا مفيدا عند العودة إلى المنزل وأسهر معظم الليل، لذا أجيب:

- حسنا، أنا حاليا في مطعم «...» في وسط البلد، هل تعرفه؟

- أجل.

- جميل، يمكنك المرور بي الآن.

- حسنا.

- في انتظارك.

أضع الهاتف وأطلب الطعام من النادل وأنتظر وصول الدكتور عمر، أنظر إلى رواد المطعم المتناثرين حولي، هناك من يجلس بمفرده مثلي. من المريح أن ترى أناسا آخرين بلا رفيق، كي تطمئن بأنك لست أنك الوحيد الذي يعاني الوحدة في هذا العالم الكبير. هناك بالطبع المتحابين الذين يمكن بنظرة واحدة معرفة مدى تطور علاقاتهم، البدايات تكون أقوى وأصدق دوما، ثم يأتي التعود، فالضجر، فالاكتشاف العبقري أن ذلك لم يكن حبا، أو قد يكونون من سعداء الحظ الذين يتحولون إلى الأسر الصغيرة المتناثرة في المكان، حيث ينصب معظم الاهتمام على الصغار، أرى جزءا مني في كل هؤلاء بشكل ما، في مراحل حياتي، بالطبع بالنسبة إلى الأسر أرى نفسي في الأطفال، وإن كان هناك حنين داخلي يتزايد يوميا لتجربة الحياة من الجانب الآخر، أن أجلس في مكان كهذا أطلب من أطفالي الجلوس بأدب والتصرف بتهذيب كي لا «تكون آخر مرة أصطحبكم معي في أي مكان» كان هذا تهديد أمي المفضل وبالطبع كان تصطحبنا بعدها في كل مكان بغض النظر عن الخسائر التي كنا نسببها، يأتي الطعام ليقطع سيل أفكاري، يبدو شهيا وأنا على وشك الموت جوعا، وكما يحدث في الأفلام العربية يأتي عمر في نفس اللحظة التي أوشك فيها على تناول أول قضمة من طعامي

الساخن الشهي، أطلق سبة خفيفة تعليقا على حظي، يبتسم وهو يتساءل إن كان بإمكانه الجلوس، «يا بني! أعطني الأوراق وانصرف بالله عليك» هذا ما يدور في ذهني ولكنني أشرت له بالجلوس على أمل أن ينصرف بعد أن يمنحني الأوراق اللعينة.

- أعتذر عن الإزعاج.

- لا بأس.

يضع مظروفا أنيقا كسابقه أمامي وهو يكرر تقريبا ما قاله سابقا، فأرد:

- حسنا، سأفعل ما بوسعي للانتهاء منه الليلة ويمكنك المرور غدا في المكتب لاستلامه.

- عظيم.

أجول بالنظر بينه وبين المظروف وبين الطعام، من المفترض كما تحتم قواعد الذوق العام أن أعرض عليه تناول الطعام معي، كما تقتضي نفس القواعد أن يرفض في تهذيب ويذهب إلى حال سبيله، لذا بابتسامة تشع كرما أقول:

- تفضل معي.

- شكرا، الحق إنني لم أتناول أي شيء منذ الصباح، لقد أتيت لتوي من المستشفى.

«ماذا؟ ليس هذا نص الحوار الذي وضعته في رأسي، عليك الرفض والانصراف يا أخ» ولكنه يتجاهل التعليق الذي لم يسمعه بالطبع لأنه داخل رأسي، ويشير إلى النادل ليطلب طبقا مماثلا لطبقي، والآن صار علي التحدث معه إلى حين مجيء الطعام لأنني بالطبع لأن آكل وحدي وأتركه يشاهد، «إلى جنة الخلد أيها الطعام الساخن!» يقطع الصمت قائلا:

- هل تأتين هنا كثيرا؟

- لا، حين أريد تغيير الروتين فقط.

- لماذا تأتين وحدك؟

ما هذا الفضول؟

- لأن الآخرين لديهم أمور أخرى تشغلهم.

لحظات مريعة من الصمت يقطعها النادل بوضع الطعام، يشكره عمر ثم يمد يده إلى طبقي ويبدل طبقه معي! فأصيح:

- ماذا تفعل؟!

بابتسامة هادئة يجيب:

- لقد أصبح طبقك باردا بسببي، ليس من العدل أن أتناول طعاما ساخنا في حين أنني من تسبب في تأخير تناولك طعامك.

أنظر إليه في دهشة.

- شكرا، حقا لم تكن مضطرا إلى...

- لا عليك، هيا قبل أن يبرد هذا الطبق أيضا.

أبتسم وأبدأ في تناول الطعام - أخيرا - ويفعل المثل، نتحدث قليلا عن العمل والمستشفيات. على الرغم من تشابهه المخيف مع يوسف فإنه يختلف عنه كثيرا، هذا هو النسخة المعدلة الأكثر تعقلا ورزانة، تنتهي الأمسية سريعا ونوشك على التشاجر بسبب الحساب، أنا أريد اقتسامه وهو يرى أن مجرد التفكير في هذا إهانة لا تغتفر «هل ما زالوا ينتجون هذا الصنف من الرجال؟» وهكذا نصل إلى اتفاق أعتقد أنني خدعت به.

- حسنا، سأدفع الحساب هذه المرة، وفي المرة المقبلة ستكون عليك، اتفقنا؟

- اتفقنا.

ترتسم على وجهه ابتسامة ظافرة، مهلا! هل اتفقت معه للتو على تناول الطعام معه مرة أخرى؟ أغادر المطعم، الطقس في الخارج يزداد برودة، لم أكن أشعر بذلك في الداخل بسبب التدفئة، أسرع الخطى إلى سيارتي ويلحق بي.

- لقد سررت بالحديث معك اليوم.

- وأنا أيضا.

أشير إلى المظروف، وأردف:

- سأنتهي منها اليوم إن شاء الله.

- وسأمر عليك غدا، أتمنى لك ليلة سعيدة.

أحييه وأدلف إلى السيارة، أضع المظروف بجانبي وأنطلق إلى منزلي، لا أدري ما سبب توتري لكنني أخشى أن تكون بسمة محققة ثانية، ليس لدي أدنى استعداد لذلك، حقا لا أريد تكرار تلك المأساة مرة أخرى.

***

تخطو مها إلى قاعة الدرس في مركز اللغات الذي التحقت به للتو، تتخذ مقعدا في منتصف القاعة كي تتمكن من مراقبة الجميع جيدا، يبدأ الآخرون في الانضمام إليها، ومع اكتمال المجموعة تزداد خيبة أملها، لا يوجد فيهم من يصلح لبطولة قصتها الخيالية، يدخل المدرس ويرحب بالجميع، تتفحصه مها جيدا، حسنا، ليس أحد نجوم السينما بالتأكيد لكن لا بأس به، تبتسم ابتسامة كبيرة ما تلبث أن تختفي مع رؤيتها خاتم الزواج في يده، ما هذا الحظ؟ لماذا يعاندها القدر بهذه الطريقة؟ هذا ليس عدلا، يبدأ المدرس في شرح المطلوب منهم خلال هذه الدورة، يبدأ الجميع في تدوين بعض الملاحظات، بينما تحني مها رأسها كالعادة وتتفقد هاتفها، يقف المدرس أمامها.

- آنسة...؟

ترفع مها رأسها لتكتشف أنه يتحدث إليها، فتجيب بارتباك:

- مها.

يبتسم بهدوء.

- أهلا آنسة مها، لكن استعمال الهواتف ممنوع في أثناء المحاضرة، باستثناء التقاط الصور للملاحظات أو تسجيل المحاضرة.

ويرفع رأسه ويوجه الحديث للباقين:

- وطبعا، تنطبق هذه القواعد على الجميع.

ثم يعاود الحديث عن كيفية سير الدورة التدريبية مرة أخرى بينما تشعر مها بالحنق وكأن الكون كله يتآمر ضدها، يمنعها والدها من الولوج إلى عالمها الافتراضي في المنزل، ويمنعها المدرس من تفقده الآن، هل هناك نوع من

المؤامرة الكونية ضدها؟ على أي حال عليها التركيز مع ما يقوله هذا المدرس كي لا يتكرر ما حدث مرة أخرى.

تنتهي المحاضرة وتغادر مها المركز، تحمل هاتفها وتتفقد رسائلها في أثناء عبورها الشارع إلى الناحية الأخرى وهي تتساءل بجنون «متي يتغير حظك يا مها؟».

***

يأتي عمر في اليوم التالي لأخذ أوراقه، ويسألني قبل أن يغادر:

- هل سبق لك تجربة العمل التطوعي؟

- للأسف لا.

- حسنا، هناك حملة توعية صحية سننفذها هذا الأسبوع في العشوائيات، هل تريدين المجئ؟

- لكنني لست طبيبة!

تتسع ابتسامته:

- أجل، لاحظت ذلك، لكنك إنسانة، إذا كنتِ تودين المشاركة يمكنك المجيء والمساعدة في توزيع بعض المساعدات الطبية على الأسر، أو الألعاب على الأطفال، هناك الكثير مما يمكن عمله.

تبدو الفكرة لطيفة حقا.

- حسنا، فقط أخبرني ما يجب عليّ عمله، أنا معك.

- عظيم، سأتصل بك لاحقا للمزيد من التفاصيل، عليّ الآن الانطلاق إلى المستشفى.

أنظر إليه وهو يغادر لتلتقي عيناي بعيني بسمة وهي تبتسم ابتسامة ماكرة، فأخرج لها لساني وأعاود الانهماك في العمل، والتفكير.

***

في الأسابيع القليلة التالية تعرفت على عالم آخر لم أكن أتخيله بهذا الحزن، أجل لست من قاطني الأبراج العاجية، لكنني لم أكن ممن يتعاملون بالفعل مع

الواقع المؤلم للطبقة التي تعيش أسفل خط الفقر بمئات الكيلومترات، وللمرة الأولى أكتشف أنني لم أكن بطيبة القلب التي كنت أتصورها.

أتأفف من لزوجة الأطفال بائعي المناديل في الإشارات، وإلحاح هؤلاء الذين يتسولون على كل ناصية، وأشعر بالحنق من هؤلاء الصبية الذين يظهرون من تحت الأرض لتوجيهي في أثناء ركن السيارة ويحملون قطعة قماش ملوثة يمسحون بها زجاج سيارتي، ويكون عليّ دفع مقابل لهذه الخدمات التي لم أطلبها.

لقد أدخلني عمر إلى عالم من البشر الذين يعانون يوميا للعيش كالبشر، المرة الأولى التي ذهبت فيها معه كنت أشعر بالخوف، حين بدأت المعالم تتغير عما اعتدت عليه شعرت بأنني غادرت عالمي إلى عالم تحت الأرض، كان عمر ورفاقه يتعاملون بتلقائية وحماس، بينما كنت أشعر بالتردد والرغبة في الفرار، ولاحظ عمر ذلك على وجهي وبدأ في تشجيعي بكلمات هي أقرب للتوبيخ:

ـ ما هذه النظرة الفوقية يا آنسة سارة؟ الناس هنا بسطاء لكنهم ليسوا أغبياء، هؤلاء بشر مثلي ومثلك لكن ظروفهم ليست بذات الجودة، نحن هنا لنقدم المساعدة لا للإشفاق عليهم أو الاشمئزاز منهم.

ـ لا، أنت تفهم الأمر بطريقة خاطئة، أنا فقط، لم أعتد...

يقاطعني بهدوء:

ـ إذا كنتِ تريدين الانسحاب، فأنا أتفهم، إذا كنت تودين المساعدة، هاكِ هذه الأكياس بها ألعاب للأطفال، قرري بسرعة من فضلك.

أنظر إلى الأكياس التي يحملها، يمكنني الالتفاف والعودة إلى عالمي الروتيني الآن، ويمكنني مد يدي وإحداث فارق ضئيل في حياة أحدهم، من دون تردد أمد يدي إلى الأكياس فتتسع ابتسامته ويومئ برأسه مشجعا، ثم يلتفت إلى باقي رفاقه ويتركني كأب ألقى طفله في الماء طالبا منه أن يطفو ويتعلم السباحة، أحمل الأكياس وأبتعد قليلا، أفتح إحداها، وأخرج لعبة براقة أمنحها لطفلة صغيرة تراقبنا بفضول، وكأن ذلك كان إشارة لهجوم باقي الأطفال الذين لا أعلم من أين أتوا، عشرات الأيادي الصغيرة تمتد إليّ وأنا أناولهم الألعاب بسرعة ملاحقة لطلباتهم، أتذكر أبي في أثناء عودته مساء بالأشياء «الحلوة» لنا، في قلبي تختلط الرغبة في البكاء بالرغبة في الضحك، تزداد الضحكات الصغيرة من

حولي، بينما يجري كل منهم يقارن لعبته بلعبة الآخر، تلك الوجوه الصغيرة تبتسم احتفالا بألعاب لا يزيد ثمنها على ثمن زجاجة مياه غازية، الوجوه التي طالما شعرت بالاستياء من رؤيتها في الإشارات أراها اليوم بعين أخرى، مهما كانت ظروفهم وملابسهم وملامحهم، فهم أولا وأخيرا أطفال، أواصل مناولتهم الألعاب والضحك، أرفع رأسي لأجد عمر ينظر إلي بابتسامة كبيرة وهو يصفق بيديه مشجعا، أضحك، لا أذكر متى كانت آخر مرة ضحكت فيها هكذا، أنتهي من توزيع اللعب فأجلس لأرتاح قليلا، يتجمع حولي بعض الأطفال لأشاهد ألعابهم الجديدة، أنظر إلى العيون السعيدة، إلى الشفاه الضاحكة، التي تتناقض تماما مع الملابس المتسخة والمساكن العشوائية المحيطة بنا، وجوه صغيرة تريد الحياة، تشتهي الفرحة، أشعر بالخجل من نفسي، من غبائي، وعدم تقديري لما أملكه، أبدأ في اللعب معهم بينما يؤدي عمر عمله مع الكبار، ومنذ زمن طويل أشعر بسعادة حقيقية.

تكررت زياراتي مع عمر ورفاقه، بدأت في اكتشاف عالم آخر معه، إحساسي بأنني أصنع فارقا مهما كان صغيرا، يملأ قلبي فرحا، وزيادة معرفتي بعمر تملأ عقلي قلقا، حتى تحققت أسوأ مخاوفي:

- سارة، أريد التقدم لخطبتك.

الفصل التاسع

تعتدل بسمة في مقعدها في الشرفة تتناول قهوتها الإيطالية ببطء، بينما أقص عليها كل ما حدث بيني وبين عمر.

- هذا كل شيء، ما رأيك؟

تضع الكوب بين راحتيها وتنظر إليّ بثبات.

- رأيي ليس حجر الزاوية في هذه القصة، تعرفين من البداية رأيي في الشاب، وأود استغلال هذه اللحظة لأقول لك مرة أخرى، «ألم أقل لكِ؟» والآن، أخبريني ما يدور بالضبط في رأسك الصغير؟

أمرر يدي في شعري وأزفر ببطء.

- لا أدري، أشعر بالخوف، لا أريد تكرار ما حدث، هناك جزء مني لا يزال يفتقد محمود بشدة، ذلك الجزء اللعين الذي يجبرني على تفقد صفحاته الشخصية في مواقع التواصل الاجتماعي، والذي يجعلني أمر على الأماكن التي يتردد عليها لعلني أراه، لكنني أخشى رؤيته في نفس الوقت، هل تفهمين؟

تومىء برأسها إيجابا من دون رد، فأردف:

- وهناك الجزء الآخر، الأكثر عقلانية، الجزء الذي تغذيه كلمات حسام، وأنتِ، الجزء الذي يريد تلك العلاقة القوية التي تربط محمد وصفاء، الذي يتمنى صداقة يوسف ورانيا، الجزء الذي يخبرني مرارا بلا ملل أنني أستحق حياة سعيدة تشبه تلك الحياة التي عشتها في منزلنا، أريد الزوج الطيب والأطفال، إحساس البيت يا بسمة.

أتوقف قليلا عن الكلام، وأتذكر أن بسمة لم تكن تعيش مع والديها، تفهم ما أفكر فتبتسم بحزن لم تستطع إخفاؤه.

- لا عليك، أفهم ما تعنين، وكلنا نحلم بالمثل، مهما تنوعت طباعنا وطموحاتنا ففي النهاية لدينا حلم المشاركة، الأمومة أو الأبوة، لكن حتى الآن لم تتحدثي عن عمر بشكل مباشر، كل هذا الكلام جميل، لكنه عامّ.

أعتدل في مقعدي وأنظر إلى السماء.

- لا أعلم، هو شخصية مختلفة عن محمود تماما.

تقاطعني بسمة بحدة:

- هلا توقفتِ عن ذكر ذلك الـ... المقيت، وكفي عن مقارنته مع غيره، لا أفهم كيف تعتبرينه أصلا مقياسا لأي شيء بعد كل ما صار!

- أنا لا أقصد ذلك، المقارنة تحدث بشكل لا إرادي، كلما رأيت أحدهم أو تعاملت معه تحدث المقارنة تلقائيا.

تشيح بنظرها إلى الناحية الأخرى وتشير بيدها لأعود إلى الموضوع الرئيسي.

- لا أدري يا بسمة.

- سارة، أنت شديدة التردد، وترددك لأسباب خاطئة، هذا الولد أفضل بكثير مما تعتقدين، رأيي أن تمنحيه فرصة وتمنحي نفسك أيضا فرصة للحصول على الحياة التي تستحقينها.

أنظر إليها وأنا أعلم أنها محقة، لكنني أشعر بخوف لا أعلم مصدره، تناولني كوب قهوتي التي بردت تماما، وتردف:

- بالمناسبة، لقد قررت ترك الشركة.

تقولها ببساطة وكأنها ملاحظة عابرة ليس بذات أهمية، فأقول بدهشة:

- تتركين ماذا؟ ماذا حدث؟ ومتى أخذتِ هذا القرار؟

- أنا أفكر في الأمر من مدة، لكنني كنت بحاجة إلى بعض الوقت لترتيب أوراقي.

- لا أفهم، لماذا؟

تعتدل بسمة في جلستها وتجيب:

- أنا أعمل في هذا المجال منذ نحو ١٠ سنوات، منذ أيام الجامعة، أنت تعلمين ذلك جيدا، كونت شبكة علاقات عملاقة تساعدني في تيسير أعمالي، أصبحت لدي خبرة كبيرة واسما معروفا في الأوساط التنظيمية، لكن أنا لن أقضي عمري بأكمله أعمل لدى الآخرين، لقد حان الوقت لأبدأ عملا خاصا بي، لدي مدخراتي وإرثي من جدتي، ولدي عدد من الرعاة المتحمسين، وعندي فريق عمل مستعد

لاتباعي إلى آخر الأرض، فلم لا؟

لطالما علمت أن هذا هو حلم بسمة الكبير، وهي أهل له، لكنني لا أتخيل الذهاب إلى العمل وعدم رؤيتها.

ـ لا أتصور كيف سيكون حال الشركة من دونك.

ـ هذا هو الشيء الآخر الذي أريد أن أخبرك عنه، إذا كان لديك الاستعداد لترك عملك المستقر والمخاطرة معي في مغامرتي، فيسعدني أن تكوني ضمن فريقي الجديد، لكن ليس لدي أي ضمانات، ما رأيك؟

بلا تفكير أجيب:

ـ معك، بالطبع معك، سننجح معا أو نتسول معا.

تعلو ضحكتها المتقطعة وتقول:

ـ لا تقلقي، أعرف بقعة جيدة جدا للتسول.

تخبرني بسمة بمزيد من التفاصيل بشأن مشروعها الجديد، أقصد عملي الجديد، وبشكل ما أشعر أنه يجب عليّ التعامل مع عمر من نفس المنطلق، سأخاطر بعملي من أجل صديقتي فما الضير في المخاطرة مع عمر؟ لذا فقد أخذت قراري، لأسباب خاطئة ربما، لكن من يدري!

***

مرت بضعة أسابيع على خطبتي، أمي تعيش أزهى فترات حياتها بالطبع، حسام يرى أن ذوقي تحسن كثيرا، يوسف ورانيا يتعاملان معي بصفتي أحد أفراد العائلة بالفعل، محمد وصفاء بدآ في رسم خطط شهر العسل لنا على الرغم من إصراري أن هذه ـ والله العظيم ـ مجرد خطبة، وعلى الرغم من انشغال بسمة بتدشين شركتها الجديدة، كانت معي خطوة بخطوة، الحق إن الجميع كان سعيدا ما عدا سارة، أجل، لم أشعر بتلك السعادة الغامرة التي أصابت الجميع، أعلم أن عمر شخص ممتاز لكنني لم أشعر بتلك الفرحة التي أراها جلية في عيون من حولي، وهذا ما كنت أخشاه، لقد فقدت قدرتي على الفرح، أصابها محمود بالعطب على ما يبدو، وتلك هي المشكلة الأخرى، حالة المقارنة المستمرة في عقلي والتي يبدو أنني لا أستطيع السيطرة عليها، كل شيء إيجابي يصب في مصلحة عمر، لكن قلبي لا يزال في الناحية المظلمة. يجلس عمر أمامي في

ذلك المقهى المصري الأصيل، نستمع إلى عزف عود رائع من مكان ما داخل المقهى، يلتفت إلي بعد انتهائه:

- ما رأيك؟

- رائع، لم أجرب هذا الجو من قبل.

- هناك أشياء كثيرة لم تجربيها، امنحيها فرصة فقط، ستدهشك.

أنظر إليه بفضول، هل يقول هذه الجملة إسقاطا على علاقتي به، يلاحظ صمتي فيقول:

- أنا أعلم أن كل شيء حدث بسرعة، لكن، أنتِ من الأشخاص القليلين جدا الذين أشعر بأنني أعرفهم منذ زمن، أعلم أن هذه الجملة تبدو استهلاكية إلى حد كبير، لكن هذه هي الحقيقة، ربما لأن يوسف تحدث عنك كثيرا، ربما لأنني أحببت طلتك الهادئة، ربما لأنني رأيت جمالا في تعاملك مع الأطفال والحالات الإنسانية التي نتعامل معها، لا أدري.

حسنا، هذا كلام جميل فعلا، أتمنى الرد عليه ردا مناسبا، لكن كل ما يدور بداخلي الآن هو هلاوس سمعية لكلمات مشابهة من محمود، هل هذا طبيعي؟

- صدقني، أنا لست بهذه الروعة.

- لست مؤهلة للحكم على نفسك، وبالمناسبة أنا لا أجامل.

تمر الأمسية هادئة، يعيدني بعدها إلى المنزل ويجلس قليلا مع أمي يطمئن على صحتها ثم يغادر، أقف في الشرفة أراقبه وهو يستقل سيارته ثم ألقي بجسدي على أحد المقاعد، هناك فراغ غريب داخلي، وكأن بقايا محمود بداخلي تحولت إلى ثقب أسود يمتص أي بادرة للسعادة أو للحب، لقد فتح لي عمر آفاقا جديدة، جعلني أشعر بأنني إنسانة ذات أهمية فارقة بالفعل، وهو يعدني بالمزيد، ومع ذلك، هناك شيء ما داخلي يمنعني من الاستمتاع بكل هذا، بسمة منهمكة في الاستعداد للعمل الجديد، وحسام لن يفهم ما أتحدث عنه، وستلقيني أمي من الشرفة إذا فكرت معها بصوت عالٍ، لا أعلم، ربما في الأيام المقبلة سيصبح كل شيء أفضل، ربما.

***

بعد مكالمة سريعة يطلب يوسف مقابلتي لأمر مهم، أجلس معه في أحد

المقاهي القريبة من العمل، يضع أمامي مظروفا أنيقا.

- ما هذا؟

- هدية الخطبة، متأخرة قليلا لكن أرجو أن تعجبك.

أمد يدي وأفتح المظروف لأجد صورا لحفل الخطبة، فأبتسم:

- لا أدري ماذا أقول، شكرا يا يوسف، هدية جميلة جدا.

يبتسم بدوره ويصمت قليلا ثم يقول:

- سارة، أحب أن أعتقد أننا أصدقاء، أخبرتك من قبل أن المصور يلتقط بعينه تفاصيل قد تمر على الجميع، والصور لا تكذب.

أنظر إليه في محاولة لفهم ما يرمي إليه فيتابع:

- أعلم جيدا أنك لم تتعرفي على عمر بشكل كافٍ، وأعلم أن كل شيء حدث بسرعة إلى حد كبير، لكن...

يصمت قليلا ويبدو أنه يحاول العثور على الكلمات المناسبة.

- ماذا هناك يا يوسف؟

- أنتِ لا تحبين عمر.

- ماذا؟

- اسمعيني للنهاية، في كل هذه الصور ستلاحظين أن هناك فرحة حقيقية تعلو جميع الوجوه باستثناء وجهك، لقد لاحظت ذلك لكنني عزوت ذلك إلى عدم وجود والدك في يوم كهذا، لكن كل مرة أراك مع عمر أجد نفس التعبير في عينيك، عمر أخي الوحيد يا سارة وأنتِ بمثابة أختي، وكل المؤشرات حتى الآن لا تدل على سعادتك بوجود أخي في حياتك.

أشعر بارتبك وحرج شديد، لم أتوقع أن يرى أحد ما أحاول إخفاءه بشدة.

- كيف تقول ذلك يا يوسف؟ إن عمر هو أجمل ما حدث في حياتي منذ زمن.

أقولها بنبرة لم تقنعني أنا شخصيا، فيومئ برأسه متفهما ويقول:

- أنا لست هنا لمحاكمتك، أنا فقط ألفت نظرك إلى خطأ ما، كل ما أريده هو

السعادة لكما، فإن لم تكن هناك فرصة للسعادة معا، فأرجو ألا تكوني سببا في حزن أخي.

يقولها ويستأذن في الانصراف لأن لديه عملا ما، أغادر المقهي وأنا أشعر بأن التنفس أضحى مهمة عسيرة، معنى أن يلاحظ يوسف أمرا كهذا، أن المسألة مسألة وقت قبل أن يلاحظ الجميع، وليس لدي أي مبرر منطقي لما يحدث.

يعتريني الضيق فأشعر بعدم رغبتي في العودة إلى العمل أو فعل أي شيء، فأغلق هاتفي وأعود إلى المنزل، أريد الصعود إلى غرفتي والنوم حتى العام المقبل، أصعد الدرج بخطوات متثاقلة محاولة التفكير في مبرر جيد أمنحه إلى أمي لعودتي في هذا التوقيت على غير عادتي، يبدو أنني شردت زيادة عن اللازم لأنني اصطدمت بشخص ما من دون أن أنتبه إلى وجوده أصلا، تتبعثر عبارات الاعتذار على لساني بينما أرفع وجهي لأرى من الضحية والتي لم تكن سوى مها، يااااااه! مها صديقة عمري التي لم تحاول تعزيتي في وفاة والدي أو الاطمئنان على صحة والدتي بعد آخر وعكة ألمت بها، لم تتحدث، فقط نظرت مطولا إلى خاتم الخطبة ثم انحنت لتلتقط هاتفها الذي سقط من يدها على ما يبدو نتيجة الارتطام، وقبل أن أقول أي شيء بادرتني بجفاء:

- مبروك.

قالتها كأنما تبصق علي ثم تابعت نزولها وهي تتفقد هاتفها من دون كلمة أخرى! ما الذي حدث لهذه الفتاة؟ هززت رأسي وتابعت صعودي، لدي الكثير من المشكلات للتعامل معها الآن، وليست حالة مها النفسية والعقلية من ضمنها.

الفصل العاشر

أقامت بسمة حفلا صغيرا لمناسبة افتتاح شركتها الجديدة، وتركت عملي وانتقلت إلى مقر العمل الجديد وأنا آمل أن تكون هذه فاتحة خير لمزيد من البدايات الجيدة، علاقتي بعمر لا تزال تحمل الكثير من المشاعر الطيبة من ناحيته والفتور التام من ناحيتي، ولا أدري متى ستكون لحظة الانفجار، تخبرني بسمة عن ذلك المؤتمر التي تعد له، أول عقود الشركة الجديدة، وتريد له بالطبع أن يكون دعاية جيدة لها، أقدم لها كل الدعم الذي أستطيع تقديمه، وأطلب من حسام تصميم موقع جذاب لنا، من دون مقابل طبعا، ما قيمة الأخ في حياة أخته إن لم تستطع استغلاله من حين لآخر؟

يتصل بي عمر ليخبرني أنه سيكون متفرغا الصباح التالي، ويدعوني لتناول الإفطار معه في أحد الأماكن الغريبة التي يدعوني إليها، الحق إنني أشكر عمله كطبيب لأنه يشغله كثيرا عن التركيز في علاقتنا، لكن إلى متى سيدوم هذا الوضع؟ وهل من العدل أن أمارس نفس اللامبالاة التي كانت تمارس معي سابقا؟ أشعر بالاختناق كلما فكرت في أي شيء، لذا أقرر أن أتجاهل المشكلة لعلها تقرر الرحيل وحدها.

***

أقف أمام خزانة ملابسي في حيرة، لا أدري ماذا أختار منها، ذلك الشعور المريع بأنك لا تملك شيئا ترتديه في خزانة مكدسة بالثياب، أمد يدي وأمرر أناملي بينها، أريد أن أبدو جميلة، أنيقة، أختار ثوبا وأضعه على صدري وأقف أمام المرآة، لا، ليس هذا، ألقيه على الفراش وأجرب آخر، أنا لا أحب الأثواب كثيرا، فلنجرب مظهرا آخر، أنظر إلى ساعة المكتب، تبا لك أينشتاين ونظريتك النسبية السخيفة، الوقت يمر بسرعة ولا بد من أن أحسم أمري كي لا أتأخر، ألتقط نفسا عميقا وأنفثه ببطء وأقرر ما سأرتديه.

أرتدي ملابسي بسرعة وأسدل شعري ثم أقرر أن أرفعه إلى أعلى، قبل أن أعيد التفكير وأسدله مرة أخرى، حبات عرق وهمية تتكون على جبيني من فرط القلق، ألقي نظرة أخيرة على وجهي في المرآة، «هل أبدو شاحبة؟» أتساءل وأنا أرتدي حذائي، لا وقت للتساؤل، لقد تأخرت بالفعل، أغادر المنزل وأهبط الدرج بسرعة، «أين ركنت السيارة؟» أتساءل وأنا أخرج مفتاح السيارة من الحقيبة، أنظر يمينا ويسارا، «تبا لتلك الذاكرة!» أراها أخيرا فأسير بخطى واسعة أفتح

الباب ووألقي حقيبتي على المقعد الخلفي وأجلس خلف المقود، أدير المحرك وأنتظر قليلا فقط لأكتشف أن هناك عبقريا ما قد ركن سيارته بشكل يجعل اصطدام السيارتين أمرا لا مفر منه إذا حاولت التحرك، أنظر إلى الساعة وأوشك على الإصابة بالجنون، أترجل من السيارة وأنظر في كل الاتجاهات بحثا عن صاحب تلك السيارة، لا شيء في الأفق، أسأل حارس البناية المجاورة، لا يعرف، «تبا!» أقولها وأنا أوقف المحرك وأحمل حقيبتي مرة أخرى، أغلق السيارة وأعبر الشارع بحثا عن سيارة أجرة، لحسن الحظ لم أنتظر طويلا، وما أن أجلس في المقعد الخلفي حتى يرن الهاتف، أملي على السائق العنوان بينما تبحث يدي في حقيبتي الضخمة عن الهاتف، تصطدم يدي بالكثير من الأشياء الغامضة قبل أن ألتقط الهاتف أخيرا.

- أعلم أنني تأخرت.

- أين أنت؟

- في التاكسي، على مقربة، لا تقلق.

بالطبع أكذب.

- تاكسي لماذا؟ أين السيارة؟

- أصابها عطل للأسف، لهذا تأخرت.

أكذب للمرة الثانية.

- لا عليك، أنا في انتظارك.

- لا تقلق أنا على بعد ١٠ دقائق منك.

بعد ما يقرب من الساعة أصل، أدلف إلى المقهى الصغير، أنظر في كل الاتجاهات بحثا عنه، ها هو ذا، يجلس في طرف المقهى وأمامه حاسبه النقال، أبتسم ما أن أراه بينما ينظر لي في حنق، أتجه إليه في خطوات واسعة.

- آسفة، آسفة، آسفة على التأخير، ولكن الزحام، أنت تعرف.

ينظر لي ولا يرد، يواصل النقر على أزرار حاسبه.

- هيا، لقد اعتذرت ماذا أفعل أكثر؟ هل أغادر؟

ـ عندما أخبرتني أن أمامك ١٠ دقائق، كنت في المنزل عندها أليس كذلك؟

ـ لا، بالطبع لا.

ـ هل يمكنك القسم على ذلك؟

تبا! ينظر لي في ثبات، هل أكذب مرة ثالثة؟

ـ حسنا، لقد كنت أمام المنزل عندها ولكن بعد أن فشلت كل محاولات إخراج السيارة.

ـ ظننت أن السيارة بها عطل.

تبا للمرة الثانية.

ـ آه، أعني كل محاولات تحريكها.

يوجه إليّ تلك النظرة المؤنبة، ثم يواصل العمل على الحاسب، أمد يدي وأغلق غطاء الحاسب.

ـ هلا انتبهت إليّ قليلا، أنا لم آت إلى هنا لتعمل وأجلس وحدي.

يضع الحاسب جانبا، ويطلب من النادل كوبا من القهوة وينظر إليّ.

ـ قهوة أيضا.

يطلب من النادل كوبا آخر.

ـ كف عن الغضب، لقد تأخرت قليلا، لا تكن طفلا.

ـ أنا طفل؟ بمعنى أنني من يكذب الكذبة تلو الآخرى ليتفادى العقاب؟

أبتسم في حرج، تبا لك!

ـ أنا لم أكذب، أنا فقط عدلت قليلا في الحقيقة، لم أنفها تماما.

ـ كاذبة، ولست ماهرة كذلك.

ـ أخبرني مرة أخرى لماذا وافقت على هذه الخطبة؟

ـ لأنني رائع بالطبع.

- وشديد التواضع كذلك.

- لا أحب الحديث عن نفسي كثيرا.

- واضح.

يأتي النادل بالقهوة.

- ولكنك جميلة اليوم.

أبتسم وأنا أتساءل بالفعل عما يعجبه فيّ.

- أهذا ما تعلمته في كلية الطب؟

- الأمر ليس بحاجة إلى تعليم، إنها الفطرة.

أدير رأسي في المكان.

- جميل هذا المكان بالمناسبة.

- سعيد أنه أعجبك، لكنك تأخرتِ، ويجب عليّ الذهاب إلى المستشفى بعد قليل.

- بهذه السرعة؟

- أنتِ من تأخرت يا آنسة، بالمناسبة ستجري مريم جراحتها هذا الأسبوع، يمكنك الاتصال برانيا وعرض مساعدتك إن أردتِ، ستسعد كثيرا.

- مهلا، مهلا، مريم من؟ وأي جراحة؟

ينظر إليّ بدهشة.

- ألم يخبركِ يوسف؟

أنظر إليه بتساؤل لا نهاية له، فيزفر نفسا طويلا ثم يقول:

- حسنا، لقد ولدت مريم بثقب في القلب، رأي طبيبها أن ننتظر قليلا قبل إجراء الجراحة لها، وأخيرا حدد الموعد الأسبوع الماضي، لكن يوسف أخبرني أنه التقاك مؤخرا، ظننت أنه أخبرك.

أهز رأسي نفيا.

ـ لم أعرف من قبل بحالة مريم، وحين قابلني أعطاني صور الخطوبة فقط، لكن هل الأمر خطير؟

ـ إن شاء الله ليس خطيرا، وجود ثقب في القلب من أكثر مشكلات القلب شيوعا لدى الأطفال، على العموم سنكمل حديثنا لاحقا على العودة إلى المستشفى الآن، لا تنسي الاتصال برانيا.

يقولها ويضع حاسبه في حقيبته وهو يدفع الحساب، بينما أستعد أنا أيضا للذهاب إلى بسمة، أقف أمام المقهى في انتظار تاكسي، يتبعني ويقف بجانبي.

ـ سارة.

أنظر إليه في تساؤل.

ـ أنا حقا أحبك.

ينعقد لساني وكأنني أصبت بخرس مفاجئ، أتمنى قول أي شيء ولو على سبيل المجاملة لكن كل ما استطعت فعله هو الابتسام ببلاهة، يشير إلى إحدى سيارات الأجرة المارة ويخبره بالوجهة على أمل أن يتفضل سمو السائق بالموافقة، في مصر يختارك السائق ولست أنت من تختاره! يفتح عمر باب السيارة بعد أن يمنح السائق الأجرة التي اتفقا عليها، وهذه أيضا إحدى خصائص التاكسي في المحروسة، أنت لا تدفع القيمة التي تظهر على العداد ـ إذا كان هناك واحد ـ ولكنك تدفع القيمة التي يحددها السائق بناء على حسابات معقدة، منها بعد المكان ومدى الازدحام وإمكانية وجود ركاب آخرين إلى نفس الوجهة أو منها، وبالطبع مزاجه العام وتوافق برجيكما، أدلف إلى السيارة ويغلق عمر الباب قائلا:

ـ حسنا، سأذهب الآن، أراكِ لاحقا.

يقولها ويبتعد عن السيارة التي تبدأ في التحرك وأنا أنظر إليه في المرآة الجانبية، أعلم جيدا أنه لا يوجد إنسان كامل أو خال من العيوب، هذه القاعدة تسري على عمر تماما كسائر البشر، لكن الحق إنه من أطيب وأفضل الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي، يمكن حتى اعتباره النسخة الأكثر هدوءا من حسام أخي، أو النسخة الاجتماعية الأكثر نجاحا من محمد، لكن هناك ما يشبه الحاجز الجليدي بيني وبينه، يتكون هذا الحاجز من جزيئات محمود، أو بقايا محمود بداخلي، وحدي أنا من تستطيع إنقاذ هذه العلاقة أو إغراقها، لكن الأهم الآن هو

الاتصال بيوسف أو رانيا للاطمئنان على ابنتهما.

***

- أنت رائق حقا.

- لماذا تعتقدين هذا؟

- أنت تبدو بلا هموم، تعمل ما تحب، وتبدو علاقة الحب واضحة بينك وبين الكاميرا.

- لا تحكمي على الكتاب من غلافه يا فتاة، ألم يخبروكِ بهذا من قبل؟

***

- إذن لماذا لم تحضرهما معك؟

- حاولت، لكن رانيا رفضت، لا تعتقد أن رحلة إلى الواحات قد تكون مناسبة لمريم حاليا.

***

لا شيء يوجع محبا قدر شعوره بالعجز عن حماية من يحب، ومحمد كان يعرف هذا الشعور جيدا، لقد زادت ضغوط حماته على زوجته مؤخرا بشكل زائد عن الحد، لقد خرجت عن نطاق البحث عن الطبيب العبقري، إلى نطاق الدجل والشعوذة والبحث عن الشيخ العبقري الذي سيجد الحل السحري لمعضلتها، لقد فاض الكيل ولم يعد باسطتاعته تحمل دموع زوجته ليلا وشرودها نهارا، لذا فقد ذهب إلى منزل والديها بدلا من الذهاب إلى العمل من دون أن يخبرها.

- أهلا محمد، ماذا هناك يا بني هل صفاء بخير؟

- الحمد لله يا عمي، أريد أن أتحدث معك ومع حماتي قليلا، هل الوقت مناسب؟

- بالطبع، تفضل، سنتناول الإفطار معا.

هكذا وجد محمد نفسه في قلب الحدث، يجب أن يأخذ موقفا حاسما من كل ما يحدث، يجب أن يتوقف كل هذا العبث.

- الحقيقة إنني ترددت كثيرا قبل المجيء اليوم، حتى إنني لم أخبر صفاء عن

هذه الزيارة، لقد ضقت ذرعا بتعامل حماتي مع مسألة تأخر الإنجاب.

قاطعته حماته في ثورة:

- ماذا تقصد بضقت ذرعا؟ من أنت حتى...

هب محمد واقفا وهو يرد بثورة مماثلة:

- من فضلك يا حماتي، أنا أتحدث معكما كوالديّ، وأرجو ألا يقاطعني أحد.

نهض حموه وهو يربت على كتفه.

- اجلس يا محمد، حماتك لا تقصد سوءا، أكمل كلامك.

- يا عمي، أنت لا تدرك مدى تعاسة صفاء، ومدى شعوري بالعجز أمام دموعها في أمر يخصنا نحن الاثنين فقط.

تنظر إليه حماته نظرة نارية فيتجاهلها ويردف:

- تحملت ذهابها المبالغ فيه إلى أطباء من كل حدب وصوب، لكن أن يصل الحال إلى الدجالين، فهذا أمر لا يمكن السكوت عنه.

- دجالين؟!

تلتقط حماته طرف الحديث وتقول بعصبية:

- هذا ليس دجلا، هؤلاء شيوخ محترمون يقدمون العون لمن يحتاج، لقد فشل الطب فلنجرب الدين.

- دين؟! الدين بريء من هذه التصرفات الشيطانية يا حماتي.

- السحر والحسد حقيقة يا أستاذ محمد.

ينظر محمد إلى حميه باستغاثة يطلب مساعدته، لكن من الواضح أنه اختار التزام الحياد في هذه المعركة الكلامية، فتستغل حماته الفرصة لتردف:

- قل إنك لا تريدها أن تنجب كي تتمكن من إنهاء الزواج بسهولة والعودة إلى بلدك، بعد أن تكون ثروة صغيرة من ورائها.

لو تدري المرأة وقع هذه العبارة على زوج ابنتها لما فكرت في لفظها مطلقا،

انتفض محمد بغضب حقيقي:

- كفى!

نهض من مجلسه واتجه إلى الباب وقبل أن يغادر المنزل نظر إليهما بغضب ممزوج بالخيبة:

لقد تركت «بلدي» يا حماتي العزيزة كي أكون مع زوجتي التي أحبها والتي قايضتها بالأسرة والأصدقاء، أنا أعمل لدى عمي ولست أتسول منه، أقدم جهدا مقابل أجر، لكن يبدو أن نظرتك إلى الأمور غير صحيحة، أنا لست طماعا أو نذلا، على أي حال لقد وضحت الرؤية بالنسبة إليّ، سأعود إلى «بلدي» وأصطحب زوجتي معي، سأعيش في منزل والدي حتى أعثر على مكان مستقل، سننتظر أن يرزقنا الله الذرية في التوقيت الذي يشاؤه، أنتما والداها ومرحبا بكما في أي وقت، أنا آسف يا عمي، أنا أستقيل.

لم ينتظر حتى يسمع ردا، غادر المنزل وهو يشعر بمزيج من الاختناق والارتياح، لقد صار بلا عمل وبلا منزل، لكنه أنقذ صفاء من الضغط العصبي الذي يمتص إنسانيتها بلا هوادة، يسير على الكورنيش بينما يهدر البحر بجانبه، لا يدري كيف ستستقبل صفاء الخبر، لكن الأكيد أن والدتها اتصلت بها فور خروجه لتنقل لها الأخبار، لم تكد الفكرة تمر في خاطره حتى رن هاتفه بنغمة الرنين المخصصة لصفاء، يرد متهكما:

- هل وصلتك الأخبار بهذه السرعة؟

- ماذا حدث يا محمد؟ لماذا لم تخبرني بما تنتوي فعله؟

- لم أتوقع أن تأخذ الأمور هذا المنحنى، الحمد لله على كل حال، المهم، لقد أصبح زوجك عاطلا، ومشردا، ما رأيك؟

- لا تقل هذا، ستمر هذه الأزمة على خير، يمكنك الانتظار حتى تهدأ الأمور وتعتذر إلى...

يقاطعها:

- لن أعتذر عن حمايتك يا صفاء، لن أعتذر عن الدفاع عن كرامتي وعن حقنا في حياة مستقرة، على أي حال، سأتحدث مع ماما لتستعد لاستقبالنا، سنحتاج إلى عدة أيام لترتيب أمورنا قبل المغادرة، لكنني لن أرغمك على شيء، إذا أردتِ

البقاء حتى أجد...

قاطعته بدورها:

- لا يوجد أي سبب للبقاء من دونك، هذا دوري لأترك أسرتي وأصدقائي وأتبعك إلى آخر العالم.

وتردف ضاحكة:

- «خالصين كدة».

يبتسم محمد للمرة الأولى منذ الصباح، حتى في أحلك اللحظات هناك لمحة من الأمل، ليس لديه أدنى فكرة عما سيفعل الفترة المقبلة، أين سيجد عملا مناسبا؟ أين سيجد مسكنا ملائما؟ كيف سيدفع ثمنه؟ وكيف ستتعامل أسرته مع الوضع الجديد؟ الكثير من الأسئلة التي لا يجد لها إجابات شافية، ينهي المكالمة مع زوجته ويجلس على أحد المقاعد أمام البحر يفكر في حاله الجديدة، الشتاء في نهايته، والبحر يودع النوات الشتوية، ويودع محمد.

الفصل الحادي عشر

اليوم هو أهم يوم في حياة بسمة العملية، لذا كنت برفقتها طوال النهار، نراجع التفاصيل مرة تلو الأخرى، نؤكد على الجميع تنفيذ عملهم والالتزام بالجدول المحدد، ذهبنا إلى الفندق المقرر إجراء المؤتمر في إحدى قاعاته، من المفترض أنه مؤتمر طبي ما، يتبعه حفل استقبال في نفس الفندق، أعلم أنها في قمة التوتر لكنها تحتفظ برباطة جأشها وتتعامل باحترافية عالية.

- سارة، لقد طلبت من يوسف المجيء لالتقاط بعض الصور لنرفعها على الموقع، ابحثي عنه واطلبي منه تصوير كل شيء وسوف نختار لاحقا، هيا.

تقولها بآلية تامة وتلتفت إلى الآخرين لإملاء أوامر مماثلة، أدور بعيني في المكان لعلي ألمح يوسف ولكنني لا أراه، أحمل هاتفي لأتصل به، رنين، رنين، رنين، رنين...

- كيف حالك يا سارة هانم؟

- بخير، أين أنت؟

- لا أعلم، لحظة، آها، خلفك مباشرة.

ألتفت لأجده يبتسم ويلوح بيده، أغلق الهاتف وأتجه إليه.

- أهلا، أهلا، كيف حالك؟

- الحمد لله.

- لا أعني حقا «كيف حالك؟» لقد أخبرني عمر بمشكلة مريم.

ينظر إلي صامتا للحظة ثم يجيب:

- بنهاية الأسبوع إن شاء الله لن تكون هناك مشكلة بعد ذلك.

- إن شاء الله، ورانيا؟

- رانيا... أم.

أتفهم تماما ما يعنيه.

- لقد اتصلت بها هذا الصباح، إن شاء الله سيكون كل شيء بأفضل حال.

- إن شاء الله، والآن هلا بدأنا العمل؟

أبتسم.

- بالطبع يا أستاذ يوسف، حسنا، تريد منك بسمة التقاط صور لكل شيء، جميع المراحل، وسوف نختار منها لاحقا.

يومئ برأسه.

- مفهوم، مفهوم، حسنا، سأتركك الآن لأباشر عملي، أراكِ لاحقا.

بعد ساعات مرهقة من العدو في كل الاتجاهات وتنفيذ ٥ مهام في نفس الوقت، يبدأ المؤتمر أخيرا، ألقي بجسدي على أحد المقاعد في بهو الفندق، لن أحضر المؤتمر بالطبع، وليس عندي أي طاقة لحضور الحفل لكن يجب عليّ الوجود، بسمة في قاعة المؤتمرات ويوسف معها ليسجل بصوره ما يحدث، أتبادل بعض الرسائل الفورية مع عمر وأنا أنتظر انتهاء هذا اليوم والعودة إلى فراشي الحبيب.

- سارة؟

هل جربت من قبل أن تسمع اسمك وينتفض جسدك رعبا لأن من لفظه أقرب إلى الأشباح؟ هل جربت أن تقابل أسوأ مخاوفك وجها لوجه؟ لقد رفعت رأسي إلى الشخص الواقف أمامي بينما عجزت كل أجهزة جسدي عن العمل لثوانٍ، أعتقد أنني فقدت القدرة على التنفس والكلام ورد الفعل، كان محمود يقف أمامي يرتدي حلة رسمية وتتدلى من عنقه بطاقة هوية تدل على علاقته بالمؤتمر الدائر حاليا، في أسوأ كوابيسي لم أتوقع أن تحدث صدفة كهذه، أنظر إليه بصمت وذهول، لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل، يتوالى وصول رسائل عمر إلى هاتفي لتنتزعني من حالة الصدمة التي أعانيها، أضع الهاتف جانبا، وأشيح بنظري إلى باب الفندق، هل أهرب؟

- كيف حالك يا سارة؟

هل تمزح؟!

أوجه له نظرة زجاجية وأجيب باقتضاب:

- الحمد لله.

يجلس في المقعد المجاور من دون أن يسأل أولا فأقول باستنكار:

- ماذا تفعل؟

- لا شيء، هذا فندق وليس صالون منزلكم.

كان بإمكاني النهوض ومغادرة المكان لكنني لم أفعل، لقد بدأت في استيعاب الموقف وأشعر أن هذه فرصتي لفهم ما حدث، لإشباع حنيني الجارف إلى هذا الشخص المقيت.

- لقد ازددت جمالا.

- شكرا.

أنظر إلى وجهه الذي طالما احتضنته عيناي عشقا، لجل ما تغيرا! كأنه شخص آخر، تتوقف عيناه عند يدي، فألتفت إلى ما ينظر إليه، بالطبع، خاتم الخطبة، بصوت حاول أن يجعله طبيعيا قدر الإمكان قال:

- مبروك.

- شكرا، العقبى لك.

يبتسم ابتسامة ساخرة ويسأل:

- من سعيد الحظ؟ هل هو شخص أعرفه؟

- لا أظن، يعمل في المجال نفسه لكنه طبيب بشري.

يرتسم الضيق على ملامحه:

- حقا؟ عظيم، مهنة الطب صعبة، الطبيب لا يملك وقته.

- لكنها من أنبل المهن، على أي حال، لا توجد مهنة سهلة.

يزداد ضيقه، وينظر إلى عيني مباشرة:

- تغيرتِ يا سارة.

أجل يا محمود تغيرت، بفضلك.

ـ سنة الحياة يا دكتور.

ـ دكتور؟ يبدو أنك تحبين اللقب.

ما هذه السخافة؟ أتجاهل التعليق وألقي نظرة خاطفة على الهاتف، لماذا أشعر بالخوف من أن يتصل عمر بي الآن؟

ـ سارة، أنا آسف.

ألتفت إليه متسائلة:

ـ عم تعتذر بالضبط؟

ـ عن كل شيء.

ـ ألا ترى أن هذا الاعتذار عائم قليلا؟

ـ تعلمين ما أقصد.

ـ لا يا محمود، لا أعلم.

ـ ألم أقل لكِ إنك تغيرتِ.

أهم بقول شيء ما لولا أن سمعت صوت بسمة من خلفي:

ـ ماذا يحدث يا سارة؟ وأنت ماذا تفعل هنا؟

أنظر إلى بسمة التي ارتسم على وجهها مزيج غريب من الغضب والاشمئزاز، أشعر بالارتباك، ينهض محمود قائلا:

ـ لا يحدث شيء، هل هناك مشكلة؟

لا أعلم سر العدائية الشديدة بين هذين، لكنني أكاد أقسم إن بسمة على وشك الهجوم عليه وقضم رقبته حتى الموت، لذا أنهض بدوري لمنع حدوث جريمة قتل.

ـ لا توجد مشكلة يا بسمة، دكتور محمود على وشك الانصراف.

ثم ألتفت إليه:

ـ سررت بلقائك يا دكتور.

أسحب بسمة من يدها ونتجه إلى مكان الحفل الذي سيقام بعد المؤتمر، وتلتفت إليّ في غضب:

ـ ماذا دهاكِ يا فتاة؟ كيف تجلسين بهذه البساطة مع هذا الكريه وتتحدثين معه كأن شيئا لم يكن؟ هل جننتِ؟ ماذا لو رآك يوسف؟

ـ لم يحدث شيء يا بسمة لا تبالغي في رد فعلك، لقد فوجئت به ولم أستطع اتخاذ رد فعل مناسب.

ترمقني بنظرة نارية.

ـ لا تلعبي بالنار يا سارة، لقد عوضك الله بخير منه، لا تخسري عمر من أجل هذا، على العموم، لا مجال لمناقشة أي شيء الآن.

تتركني وتتجه إلى المضيفين ليستعدوا لاستقبال أعضاء المؤتمر، بينما أقف وحدي أراقب المشهد من بعيد، لا أفهم ما حدث للتو، ولا أستطيع شرح ما أشعر به، ولكنني أشعر بخوف غريب، ليس خوفا من محمود أو بسمة أو عمر، خوفي مما قد أفعله وأندم عليه لاحقا.

* * *

يجلس محمود خلف مقود سيارته ويجول بها في ليل الشتاء المحتضر، لا يشعر برغبة في العودة إلى المنزل الآن، لقد رآها اليوم وتحدث معها.

سارة، لم تعد الفتاة المطيعة التي تذوب فيه عشقا، صحيح أنهما لم يتبادلا الكثير من الكلمات لكن هناك شيئا ما في نبرات صوتها تغير، في ملامحها، في قسوة عينيها، في خاتم خطبتها، يشعر بالضيق كلما تذكر هذا الجزء بالذات، وكأنما يريدها أن تعلن الحداد على حبه الضائع طوال عمرها، كيف تمكنت يا سارة من استبدال شخص آخر بمحمود؟ كيف تمكنت من وضع يدك في يد رجل آخر؟ هل ترددين نفس الكلمات التي تشبعت بها أذناي حتى سئمتها؟ هل تنظرين إليه بنفس الاحتياج المقيت؟ تتوقف السيارة على مقربة من أحد المقاهي التي يتردد عليها، يريح مقعده ويرخي ربطة عنقه وهو يرمق الشارع الممتد أمامه في شرود، يتذكر المرات التي جلست بجانبه تتحدث معه عن أحلامها الوردية، المرات عندما أضحكها ثم أبكاها، ثم الوجوه التي تبدلت على نفس المقعد مرارا حتى تداخلت الأسماء في الوجوه، ماذا تفعل بحياتك يا محمود؟

يفتح علبة التبغ ويلقي بلفافة بين شفتيه، يشعلها وينفث حيرته دخانا، هل

أحبها يوما؟ الإجابة التي يزداد تيقنا منها كلما تساقطت الأيام من عمره، هي أنه لم يحبها قط، في البداية أحب حبها له، اهتمامها، حاجتها إليه، نفس الأشياء التي أصابته بالملل لاحقا حتى صارت عبئا يرجو التخلص منه بأي ثمن، وحده يعلم الحقيقة، يعلم أن نظرته إلى سارة تبدلت تماما بعد أن التقى بسمة، بسمة التي ملكت قلبه بنظرتها الزجاجية القاتلة، بسمة التي داعبت أحلامه كما تداعب خصلات شعرها الأحمر الناري، بسمة التي لا تطيق أن تتنفس ذات الهواء الذي يتنفسه، ولكنه لا يمانع مطلقا أن تكون هي قاتلته، وكلما شعر بانعدام فرصته معها، تفنن في إيذاء سارة، ظن أنه إذا تقدم لخطبة صديقتها فستغار حتما، ستمنحه فرصة ليلقي بقلبه في زرقة عينيها، لكنه كان مخطئا، لقد وجد نفسه محاصرا بين حب سارة الخانق وارتباطه باتفاق مع أسرتها، ومقت بسمة له، لقد كشفت أمره سريعا وطالبته بالابتعاد عن صديقتها، لا يزال يذكر صفعات كلماتها لكرامته، ساخنة، موجعة.

- أنت لا تصلح للحب أو للزواج يا محمود، لقد كذبت، وخنت، وأخلفت وعدك، أنت منافق ولا يمكنني ائتمانك على قلبي أو حياتي أو مستقبلي، ثم هل فكرت في تلك الحمقاء المريضة بحبك؟

- لقد كان خطأ من البداية، لكن يمكن تداركه، كل شيء يمكن إصلاحه لكنه يحتاج وقتا، ربما كانت سارة سببا أرسله الله كي أعرفك يا بسمة.

- إياك أن تزج باسم الله في هذه الحقارة، أنا لست إحدى فتياتك يا دكتور.

- امنحيني فرصة كي أغير لك هذه الفكرة.

تبتسم بسخرية وتستدير مغادرة ثم تلتفت إليه:

- لن أخبر أحدا بما حدث هنا اليوم، ولن أسمح لك بإيذاء سارة أكثر من هذا، لذا كف عما تفعله واتركها لمن يستحقها، كن رجلا، هذه هي الفرصة التي أمنحها لك.

وتغادر بسمة وكل دقة من كعب حذائها تنغرس وتدا في قلبك يا محمود، كم تشعر بالضآلة كلما تذكرت كلماتها تلهب رجولتك كالسياط، كم تخجل من ضعفك أمام نظرتها الباردة وكلماتها الحارقة، تذكر بداية تعارفكما، سمعت عنها كثيرا حتى قابلتها تجلس مع سارة في ذلك المقهى، وكأن هذه الأخيرة شمعة تجلس بجوار الشمس، تذكر تثاقل أنفاسك حين شممت عطرها، للمرة الأولى في حياتك

تفهم عبارة «تخطف الأنفاس» على أرض الواقع، تذكر عينيها الزرقاوين تنظران إليك بثبات فأردت أن تجثو على ركبتيك وتعترف، تعترف بكل شيء، تعترف بأنك لم تحب صديقتها وأنك ستتخلى عنها في أقرب فرصة، تعترف بأنك عابث وتحب اهتمام الأخريات بك حتى تسأمهن، ثم تعترف بأنها ليست كأي منهن، لكنها لم تكن بحاجة إلى اعترافاتك يا فتى، لقد سبرت أغوارك من النظرة الأولى، لذا اتخذت موقفا هجوميا منذ اليوم الأول، أحنقك هذا بشدة فصرت تصب جام غضبك على سارة، صرت تبحث عن شبيهات بسمة، توقعهن في شباكك لتروي ظمأك من بحر عينيها، فما زادك هذا إلا عطشا، كيف عجزت أيها الصيدلي عن تركيب دواء يشفيك منها؟

يلقي محمود بقايا لفافة التبغ من النافذة ويدير السيارة استعدادا للعودة إلى المنزل، يعلم أنه لن ينام سريعا على الرغم من إرهاقه، يعلم أن ذكراها العائدة بقوة ستبقيه مستيقظا يتساءل كيف كانت حياته لتكون إذا قابل بسمة قبل سارة، لن يصدق أحد أن محمود الذي يتعامل مع الفتيات بنفس المنطق الذي يتعامل به مع لفافات التبغ، يمكن أن تبقيه إحداهن أسير الأرق ليلا يحلم بها بعينين مفتوحتين، تبدأ السيارة في التحرك مرة أخرى، يلتقط محمود هاتفه يبحث بين الأسماء عن رقم بعينه، يضع الهاتف على أذنه ينتظر الرد، يضع لفافة التبغ بين شفتيه ويشعلها، يبتسم عندما يجيبه الصوت الناعس، ويعاود محمود حرق لفافة تبغ جديدة.

***

أدلف إلى غرفتي بعد الاطمئنان على أمي، أخلع حذائي وأتجه إلى الشرفة لألقي بجسدي على المقعد مريحة رأسي إلى الخلف، لقد مر اليوم، نجحت بسمة في اختبارها الأول، لن نتسول قريبا على ما يبدو، والمواجهة التي طالما تخيلتها في صحوي وأحلامي حدثت بالفعل، ولم تكن كما تصورتها على الإطلاق، أجل، لقد عاد محمود اليوم كطيف من ماضٍ ذرفت في حنيني إليه بحرا من الدموع، لكنه لم يكن كما تخيلت، عاد محمود غريبا، بعيدا، تثير ذكراه مشاعر أكثر بكثير من التي تثيرها رؤيته، أنا لا أفهم، أين تلك الجذوة الملتهبة في قلبي التي كان مجرد ذكر اسمه يثيرها لهيبا تلفح روحي بحرارتها؟ يتعالى رنين الهاتف فألتقطه.

- كيف حالك يا عمر؟

- الحمد لله، المهم، كيف حالك أنت؟ كيف كان المؤتمر؟

- الحمد مر اليوم بسلام، لا توجد خسائر في الأرواح.

- جميل، لقد أرسلت لك عشرات الرسائل لكن لم يصلني رد فخمنت أنك مشغولة.

- آه، آسفة، بالفعل كان يوما شاقا.

- لا عليك، خذي قسطا من الراحة ونكمل حديثنا لاحقا، ما رأيك في تناول الغداء غدا معا؟

- بالتأكيد، أراك غدا.

- تصبحين على خير يا أميرتي.

أصمت قليلا، لم ينادني أحد بهذا اللقب منذ وفاة أبي.

- وأنت من أهل الخير، سلام.

أضع الهاتف أمامي على الطاولة، وأغمض عيني، سيكون غدا يوما حافلا، ستؤنبني بسمة وبشدة على ما حدث، سيسألني عمر عن اليوم وكيف سار، أخبرتني أمي أن محمد وزوجته سيقيمان معنا بشكل مؤقت بدءا من الغد حتى يجدا مسكنا خاصا، ماذا عن محمود؟ هل سيحاول الاتصال بي؟ هل سيأتي ليقابلني عند العمل؟ تتزاحم الأسئلة في رأسي المتثاقل تعبا فلم أشعر بشيء، حتى أيقظني حسام وطلب مني الانتقال إلى الفراش لأنني على ما يبدو نمت في الشرفة، أستند إلى ذراعه وألقي بجسدي على الفراش من دون أن أبدل ملابسي، أشعر به يغلق الشرفة ويضع الأغطية فوقي ويغادر الغرفة بهدوء، ماذا لو علمت يا حسام بما حدث اليوم؟ لا ينافسك في مقتك لمحمود سوى بسمة، ولم أفهم يوما سر عدائيتكما تلك، لكن غدا، غدا، ماذا كنت أقول؟ تنسدل الستائر على وعيي المرهق وأنزلق إلى هوة الأحلام.

***

ينتفض محمود ارتباكا بسبب الدقات المتتابعة على باب شقته، ينظر إلى ساعته ليتأكد من الوقت، لقد قاربت الساعة على الثالثة صباحا، من يمكن أن يدق على بابه في هذا الوقت؟ يرتدي ملابسه بسرعة وهو يحاول تخيل وجه من يقف ببابه، هل هو أحد أفراد أسرته؟ يمتقع وجهه للفكرة وهو ينظر برعب إلى الفتاة التي تغط في فراشه، ماذا لو استيقظت فجأة وخرجت تبحث عنه في

أثناء وجود أحد أقاربه؟ ماذا يفعل؟ تستمر الدقات وتتسارع فيحاول تمالك أعصابه، يغادر الغرفة ويغلقها بهدوء، ويتجه إلى الباب معلنا عن قدومه، يفتح الباب ليطالعه آخر وجه يتخيل وجوده أمام بابه، وآخر وجه يتمنى أن يراه في هذه اللحظة بالذات.

- كل هذا الوقت لتفتح الباب يا دكتور؟

تقولها بسمة بتهكم وهي تزيح جسده وتتجه إلى الأريكة من دون دعوة، تجلس وتضع ساقا فوق ساق وهي تتفقد المكان باهتمام ثم تردف:

- هل ستقف هكذا طويلا؟ يمكنك إغلاق الباب والجلوس، البيت بيتك.

ينتبه محمود إلى أنه لا يزال يقف أمام باب الشقة بمنامته، وأن بسمة بالفعل تجلس على أريكته وهي تسخر منه بشكل ما، هل يحلم؟ هل أسرف في الشراب؟ على ذكر الشراب تتجه عينه لا إراديا إلى غرفة نومه، ياللمصيبة! تتابع بسمة نظراته المذعورة وتبتسم بسخرية ممزوجة بالاشمئزاز.

- هل جئت في وقت غير مناسب يا، يا دكتور؟

يجيب بصوت حاول أن يكون طبيعيا إلى أقصى حد، فكانت النتيجة مأساوية إلى أقصى حد.

- مرحبا بك في أي وقت يا بسمة، لكن ما سبب هذه المفاجأة السارة؟

يلقي بجسده على أقرب مقعد لأن ساقيه على وشك الانهيار، تنقل بسمة نظرها بين باب غرفته وبين وجهه الشاحب كالموتى وتعتدل في جلستها، وبلهجة ذات مغزى تجيب:

- لن آخذ من وقتك طويلا، اطمئن، أردت فقط تذكيرك باتفاقنا القديم لأنك نسيت على ما يبدو، على الرغم من تحذيري لك يوم الفندق.

- أنا لم أنس، لكن تحذيرك كان بشأن سارة، أنا لم أتحدث مع سارة إلا لمعرفة أخبارك.

تنظر إليه بسمة ببرود.

- ألم تقلع عن الكذب بعد؟ مشكلة!

يهب محمود من مكانه متصنعا الغضب.

- أنا لست كاذبا.

ينعقد حاجباها الجميلان بغضب حقيقي، فيتراجع عن نوبة غضبه الملفقة ويهدأ صوته وهو يردف:

- دوما تسيئين فهمي يا بسمة، لم تمنحيني قط فرصة لأثبت لك صدق نواياي.

- بل منحتك فرصة يا محمود، أنت نسيت.

- فرصة لأترك صديقتك، وتركتها، من أجلك تركتها.

- ليس من أجلي يا دكتور، طلبت منك أن تتركها لمن يستحقها، وجاءها من يستحقها فقط لتظهر أنت مرة أخرى لتعبث في أفكارها الملوثة بذكراك بالفعل، ماذا تحاول أن تفعل بالضبط؟ هل تتحداني؟

- سارة لا تعني لي شيئا يا بسمة، سارة كانت مجرد تمضية وقت، كانت صحبتها ممتعة في البداية لكنها أصبحت كالكابوس مع مرور الوقت، أنا وهي لم نخلق لنكون معا، لكن أنا وأنت، الوضع مختلف، أنت الوحيدة الجديرة بأن تكون مليكتي، وأنا على استعداد لفعل أي شيء من أجلك.

ترتسم ابتسامة غامضة على وجه بسمة وهي تنهض من مجلسها وتتجه إليه، يخفق قلبه بعنف وعطرها يقترب منه، تدنو منه وتنظر مباشرة في عينيه بالبحر المتلاطم في عينيها، فينسى كيف كان يشهق ويزفر تلقائيا، تهمس بسمة بصوت ناعم وبهدوء يحيله إلى طفل صغير:

- عزيزي، لو لم يكن بالعالم رجال سواك فسأفضل اعتزال العالم على أن نكون معا، أنا لست هنا بصفة ودية على الإطلاق.

تضع أناملها الرقيقة تحت ذقته لترفع وجهه إلى وجهها وتردف:

- لو لم تبتعد عنها، وعني، وعن عالمنا بأكمله، سأذيقك من العذاب ألوانا، سأفسد حياتك بأكملها، سأجعلك تخسر عملك، سأقلب أسرتك ضدك، سأعلن حربا مقدسة ضدك يا محمود ولن أتراجع حتى أحطمك تماما، وأنا لها.

تترك وجهه وتعدل من خصلات شعرها وهي تتجه إلى الباب، ينهض من مقعده بسرعة فيؤلمه رأسه بفعل النهوض المفاجئ، لكنه يقف أمامها ويمسك بذراعها

بقسوة.

ـ ماذا تظنين أنك فاعلة؟ انظري أين أنت، أنت في بيتي، لقد جئت لي بقدميك يا صغيرة، من يمكنه لومي إذا فعلت أي شيء الآن؟

تطلق بسمة ضحكة عالية.

ـ هل أنت بهذه السذاجة فعلا؟ أم أن التفاف ضحلات العقل حولك أصاب تفكيرك بالعته؟ محمود يا صغيري أنا أتناول أمثالك على الإفطار، بالمناسبة، لقد اتصلت بوالدك قبل أن أصعد إلى هنا وأخبرته بأنني جارتك وأنني سمعت جلبة آتية من شقتك وأنك لا تجيب وأخشى حدوث مكروه لك، وأنك منحتني رقم هاتفه لأتصل به عند الطوارئ، أعتقد أنه في الطريق إليك الآن مع أحد إخوتك وربما زوج شقيقتك، أرى أن تفتح هاتفك وتمنحهم تفسيرا جيدا عن سبب إغلاقه، ولكن قبل ذلك، عليك أن تتخلص من قمامتك، لن يسعد السيد الوالد كثيرا إذا اكتشف قذارة ولده الحبيب.

تقولها ببرود وهي ترنو إلى غرفته بطرف عينها، يترك محمود ذراعها وهو يمسح حبات عرق وهمية من فوق جبينه.

ـ أنت تكذبين، تقولين ذلك لكي أتركك.

تتجه بسمة إلى الباب بينما يتجه محمود إلى هاتفه ليجده مغلقا بالفعل، لقد انتهى شحنه على ما يبدو، لكن كيف؟ وأين ذلك الشاحن اللعين؟ يتجه إلى النافذة ليجد سيارة والده بالفعل تقترب من البناية، يا للكارثة!

ـ هذه عينة صغيرة مما يمكنني عمله، فكر في ما قلت جيدا، وحاول ألا تصاب بنوبة قلبية، يا، يا دكتور.

تغادر بسمة الشقة وتغلق الباب خلفها بينما يدور محمود حول نفسه محاولا إيجاد مخرج ملائم، تتوالد التبريرات والأعذار في رأسه تباعا بينما يغادر شقته بدوره ويهبط الدرج لملاقاة والده قبل أن يصعد إليه، سيتحدث عن وجود فأر عملاق في المطبخ وأن الجارة أساءت فهم الموقف، وسيتحدث عن انقطاع شحن هاتفه ونسيان الشاحن في العمل، سيدعوهم إلى الصعود وهو يدعو الله من أعماق قلبه الأعمى بأن يرفضوا الدعوة، وستمر الليلة بسلام، هكذا يمني نفسه وهو يتساءل بجنون «أي شيطانة أحببت يا محمود؟».

***

أستيقظ من غيبوبتي على صوت ترحيب أمي بصفاء ومحمد، أغادر الفراش بملابسي التي لم أبدلها وشعري الثائر في جميع الاتجاهات الجغرافية الممكنة، وبأوضاع تتحدى قانون الجاذبية بشكل صارخ، وبصوت ناعس متثاقل أحاول إكسابه نوعا من البهجة أردد بين الكلام والتثاؤب:

- صباح الخير.

أقولها وألقي بجسدي على الأريكة وأغمض عيني مرة أخرى.

- كيف حالك يا سارة؟

تقولها صفاء فأرفع إبهامي في الهواء بمعنى أنني في أحسن حال كما يبدو جليا، وتتساءل أمي:

- ألن تذهبي للعمل اليوم؟

- بلى، سأذهب، حالا.

أقولها وأنا مغمضة العينين، وأهم بقول شيء ما لكن رنين جرس الباب يقاطعني بوقاحة، هل استيقظ سكان مصر جميعا مبكرين اليوم؟ يفتح محمد الباب وأسمعه يرحب بالطارق:

- أهلا بسمة كيف حالك؟

أنهض بسرعة وأنظر إلى الباب في ذهول، إنها بسمة بالفعل، ياللمصيبة! هل ستتحدث عما حدث أمس؟

- الحمد لله، حمدا لله على سلامتكما يا محمد، القاهرة منورة.

ترد صفاء مجاملة:

- بأهلها.

جميل جدا ما يحدث في دارنا الآن، لكنني في ربع قواي الذهنية حاليا، ترمقني بسمة بنظرة غاضبة:

- ما هذا الكسل يا آنسة؟ لدينا عمل يا سمو الأميرة.

- سأستعد حالا.

أقولها وأعود إلى غرفتي مرة أخرى تاركة أذني معهم خشية أن تتفوه بسمة بأي شيء عن محمود، أبدل ملابسي وأسمع أمي تتحدث:

- لا يمكن أن تغادري قبل تناول الإفطار معنا يا بسمة.

- المرة المقبلة يا طنط، لدينا عمل مهم وتأخرنا بالفعل.

أنتهي من ارتداء ملابسي كيفما اتفق، وأخرج إلى التجمع السعيد في الصالة.

- حسنا، لقد انتهيت، هيا بنا.

أقولها وأدفع بسمة أمامي وأغلق الباب خلفي، تسبقني الفتاة إلى المصعد ولا تتبادل معي أي كلمة حتى وصلنا إلى سيارتها.

- اتبعيني بسيارتك، سنتناول الإفطار في أحد المطاعم القريبة، لدينا الكثير لنتحدث عنه قبل الذهاب إلى المكتب.

تقولها بلهجتها الآمرة وتدلف إلى سيارتها وتبدأ في التحرك، فأتجه إلى سيارتي بدوري وأديرها استعدادا للحاق بها، للمرة الأولى منذ سنوات أنام بهذا العمق من دون أفكار مزعجة، أبدأ في التحرك بدوري في الشوارع الهادئة قبل ساعات الزحام، نتوقف عند مطعم قريب فألحق بها إلى الداخل.

تجلس بسمة إلى إحدى الطاولات المطلة على الشارع وأجلس قبالتها، تنظر إليّ طويلا ثم تبدأ في القصف:

- هل لديك أي سبب منطقي يجعلك تتبسطين مع محمود وتتحدثين معه وكأن شيئا لم يكن؟

- بسمة أنت تضخمين الأمور و...

- سارة، أنا لست هنا لأحاسبك، أنا أؤدي دوري كصديقة جيدة فحسب، لذا كفي عن اللف والدوران وأجيبيني فقط كي نصل إلى شيء، ممكن؟

أومئ برأسي إيجابا.

- لقد حدث كل شيء بسرعة يا بسمة، فجأة وجدته أمامي وجلس من دون دعوة وبدأ في الحديث، هل لديك أي فكرة عن عدد المرات التي تخيلت فيها

حدوث هذا اللقاء؟

تنقل بسمة بصرها بيني وبين الشارع وتجيب بهدوء:

ـ أعلم جيدا، سيذهلك معرفة ما أعلم يا سارة، لكنني أخبرتك مرارا بأنه ليس معنى أنني لا أتحدث عما أراه أنني عمياء، أنا فقط لا أحب فرض نفسي على الآخرين، لكن يجب أن تعلمي بدورك أنني على الرغم من عدد معارفي الذي يتجاوز عدد سكان مدينة صغيرة، فإن أصدقائي قليلون للغاية، وأنت من أقرب أصدقائي إليّ، وأسرتك أعتبرها أسرتي البديلة، لذا لا أحب أن أرى أي مكروه يصيب أيا منكم.

أبتسم في امتنان فتتجاهلتي وتكمل بقسوة:

ـ محمود لم ولن يأتي من ورائه خير، إذا كنتِ قد نسيتِ فيسعدني تذكيرك يا صغيرتي، لقد خدعك بجدارة وتعامل مع أسرتك بمنتهى الوضاعة، ودفعك إلى محاولة الانتحار الفاشلة التي كانت سببا في إصابة أسرتك بأكملها بالحزن وخيبة الأمل، وعند وفاة والدك لم يحاول حتى أن يقدم واجب العزاء أو يهتم بحالتك بعد أن سرق من عمرك سنوات، هل تذكرين أيا من هذا؟

***

ـ لماذا يا سارة؟ كيف تفعلين بنا هذا؟

بمرارة يسألني أبي، فأشيح بوجهي ولا أجيب.

***

الفصل الثاني عشر

كدلو ماء مثلج تصب بسمة كلماتها على رأسي، تتحدث في ما تحاشاه الجميع طوال السنوات الثلاث الماضية، تتحدث عما يبقيني حبيسة الأفكار السوداء كل ليلة، تتحدث بصوت عالٍ عما أراه في أعين كل من حولي ولا يتفوهون به، أذكر تلك الليلة جيدا.

أجلس على طرف فراشي أنظر إلى «التشكيلة» التي ابتعتها من عدة صيدليات متفرقة، ما زالت دموعي تحاول في استماتة تسكين ألم قلبي، ما زالت كلمات والديّ المؤنبة لسوء اختياري تصيبني في مقتل، ما زالت كلمات محمود الأخيرة تهشم ما تبقى من روحي، أشعر بالضعف، بالألم، أريد فقط أن يهدأ هذا الألم للأبد، أن يهدأ قليلا حتى. تتراقص الوساوس حولي، بضعة أقراص من هذه كفيلة بتهدئة كل شيء، بضعة أقراص فقط وسيسكن الألم، وستصمت الأصوات، وسأرتاح، أتناول الأقراص مجموعة تلو الأخرى وأنا أمني نفسي براحة قريبة، لم أنتبه إلى غباء ما أفعله إلا حين بدأت الأرض تتهاوى من تحتي، حين بدأ وعيي في التسرب أصابني الذعر، بئس اللعبة التي اخترتها يا سارة! أحاول الصراخ لطلب المساعدة لكنني بلا أي حول أو قوة، يحيط بي الظلام وأتهاوى لأستيقظ بعدها في المستشفى، أمي تبكي، أبي يجلس واجما بجواري، وبصوت حزين أسمعه للمرة الأولى في حياتي:

ـ لماذا يا سارة؟ كيف تفعلين بنا هذا؟

بمرارة يسألني أبي، فأشيح بوجهي ولا أجيب.

لم يهتم محمود بالسؤال عني، ما أصابني بالحنق وصرت أصب جام غضبي على أسرتي وأتهمهم بإساءة معاملته.

***

ـ لماذا يا سارة؟ هل قصرنا معكِ في أي شيء؟ كيف تفعلين بنا هذا؟

ـ أنت السبب، أنا أكرهك، أكرهكم جميعا.

***

غادر أبي المنزل قبل أن يفقد أعصابه، ولم يعد بعدها أبدا.

أنظر إلى بسمة وأبكي.

ـ لقد قتلت أبي يا بسمة، قتلته بكلماتي، بأنانيتي، بغبائي.

تمد يدها لتربت على يدي.

ـ توقفي عن ذكر هذه الترهات، الأعمار بيد الله، لقد كان عمي حزينا عليك وليس بسببك.

ـ أنا لم أسامح نفسي قط، لم يسامحني أحد، هم فقط لا يريدون أن أكرر فعلتي.

ـ سارة، توقفي، أنت لم تعودي صغيرة، عليك فقط أن تتذكري أن من سبب كل هذه المشكلات في المقام الأول هو ذلك الكريه، لقد دمر حياتك مرة، لا تمنحيه فرصة أخرى لتكرار فعلته، لديك عمر الآن، لا تخسريه.

أرفع وجهي وأنظر إليها من بين دموعي، تفتح حقيبتها وتلتقط هاتفها لتضعه أمامي.

ـ ربما ستكرهينني لما سأفعله الآن، لكن يجب أن أتأكد.

تقولها وهي تضغط زر تشغيل أحد الملفات الصوتية ليتصاعد صوت محمود.

«سارة لا تعني لي شيئا يا بسمة، سارة كانت مجرد تمضية وقت، كانت صحبتها ممتعة في البداية لكنها أصبحت كالكابوس مع مرور الوقت، أنا وهي لم نخلق لنكون معا...»

أنظر إليها بذهول:

ـ ما هذا؟

ـ هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعيها جيدا.

ـ كيف حصلت على هذا التسجيل؟

ـ لا يهم، المهم أنه حقيقي.

أنظر في شرود إلى الهاتف، قلبي يرفض أن يصدق، سنوات عمري التي انسابت كحبات رمل بين أنامله لم تكن إلا مجرد تمضية وقت؟ تصفق بسمة بيدها أمام

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

وجهي لأفيق من شرودي قبل أن يتطور الموقف للأسوأ.

- انظري إلي، لا يستحق يا سارة، لا يستحق التفكير أو الحزن.

هل شعرت بطعم الخذلان المر من قبل، لدرجة أن حواسك تخدرت فلم تعد تشعر بشيء؟ هل شعرت بالخيبة لدرجة أنك تمنيت أن يكون كل ما يدور حولك مجرد كابوس سخيف؟ أنظر إلى عيني بسمة المشفقتين وأهز رأسي نفيا.

- بالفعل هو لا يستحق، لكنني أستحق يا بسمة، أستحق أن أحزن على نفسي وأرثي لحالي.

- ولا ذلك أيضا، لأن الله عوضك بالخير.

أومئ برأسي وأنهض.

- إلى أين؟

- لدي بعض المهام قبل ملاقاة عمر، هل يمكنني أخذ اليوم إجازة؟

- بالطبع يا فتاة، هل أنتِ بخير؟

أومئ برأسي مبتسمة.

- كفي عن القلق، أنا لم أعد صغيرة، أراكِ لاحقا.

أقولها وأغادر المطعم، وأتجه إلى سيارتي بخطوات واسعة، بداخلي بركان من الحمم الغاضبة تتخلله موجات عاتية من الخذلان والإحساس بالغباء، أبدأ التحرك بالسيارة وأنا لا أدري إلى أين أذهب وماذا أفعل، لا أريد رؤية أي شخص أو الحديث عن أي شيء، أسير في الشوارع التي بدأت في الازدحام فيزيد إحساسي بالاختناق، أتمنى الذهاب إلى منزل محمود وتحطيم الجدران على رأسه الفارغة، أتمنى اقتلاع قلبه الأناني الحقير وسحقه بكعب حذائي، أتمنى أن يعود الزمن بضعة سنوات حتى أقابله للمرة الأولى فأدير وجهي ولا أضطر إلى رؤية وجهه مدى الحياة، أتمنى وأتمنى، ولن يتغير شيء.

***

تنقل صفاء الملابس من الحقائب إلى الخزانة، ينتابها إحساس غريب بالخواء، لقد خسرت عملها ومنزلها وأسرتها ولم يعد لديها سوى زوجها، فهل سيقدر هذه التضحيات؟ صحيح أن محمد إنسان طيب ويحبها ولكنه «رجل» وهي تعلمت

من الأمثال أن الرجال بلا أمان، تضع يدها على بطنها وتعتصرها بألم، تتساءل عن اليوم الذي ستضع يدها على بطن منتفخ تتحرك فيه الحياة لتمنحها الأمان الحقيقي الذي تنشده، تنتزعها طرقات على الباب فتجفل وتسحب يدها بسرعة.

- تفضل.

تدلف حماتها إلى الغرفة.

- هل تريدين مساعدة يا حبيبتي؟

- شكرا يا ماما، لقد انتهيت تقريبا.

- جميل، تعالي يا صفاء.

تقولها وهي تجلس على طرف الفراش وتشير لها بالجلوس بجانبها، فتذهب إليها صفاء.

- لست بحاجة لتذكيرك أن البيت بيتك، ونحن أسرتك الثانية، ولا تحزني، ما يحدث مجرد سحابة صيف وستمر بإذن الله، سيكون لك بيت مستقل وسيجد محمد عملا وستعود الأمور إلى ما كانت عليه وأحسن، فقط اصبري.

- وهل أبرع في شيء إلا الصبر يا أماه؟

- لا تجعلي نفسك فريسة الأفكار السيئة يا ابنتي، أنا لست حماتك أنا أمك، وأنت مثل سارة، تعاملي معنا على هذا الأساس.

تومئ صفاء برأسها فتربت حماتها على كتفها وتنهض.

- حسنا، سأذهب لأعد طعام الغداء، نامي قليلا حتى يعود محمد وحسام.

تراقبها صفاء وهي تغادر الغرفة، تعلم جيدا أنها صادقة، لكن رغما عنها تشعر بالغربة، سيكون من الغريب التعايش مع وضعها الجديد، لكن عليها أن تتحمل، تتذكر الكلمات التي قالتها حماتها للتو وتتمتم «أجل، الصبر».

* * *

ألهو بالطعام الموضوع أمامي من دون تناوله ويسألني عمر:

- هل أنت بخير؟ ألا يعجبك الطعام؟

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

- الطعام جيد لكن شهيتي ليست جيدة.

يضع عمر ملعقته في الطبق ويعدل من وضع عويناته ويقول بهدوئه المعتاد:

- سارة، ماذا هناك؟

أهم بقول «لا شيء» فيسبقني:

- ولا تقولي «لا شيء» من فضلك، لأن من الواضح أن هناك «شيئا»

أنظر إلى عينيه مباشرة وأسأله:

- لماذا تريد أن تتزوجني يا عمر؟

- متأخر جدا هذا السؤال.

- better late than never

يعتدل في مجلسه ويزفر نفسا طويلا ثم يقول:

- حسنا، لنفترض أن أخي ظل يتحدث عنك مدة طويلة، وأنني رأيت الصور التي التقطها في الواحات فأحببت أن أتعرف عليك، ولنفترض أنني عندما رأيتك وتحدثت معك كان انطباعي الأول هو الإعجاب، ولنفترض أيضا أنني بزيادة معرفتي بك زاد إعجابي بشخصيتك، كل هذه افتراضات لكنها ليست السبب في رغبتي في الزواج بك.

- ما السبب إذن؟

- أحببتك.

يقولها بسيطة، واضحة، صادقة، لكنني لم أعد أصدق.

- لماذا؟

- لا أعرف، تلك اللحظة التي رأيتك فيها تلعبين مع الأطفال في ذلك الحي، تخيلتك تلعبين مع أطفالنا، تلك اللحظة التي التفت إلي تضحكين كطفلة في الخامسة، لم يعد أي شيء كما كان.

لماذا لا أصدقك يا عمر؟ هل لأنني فقدت إيماني بالحب؟ هل لأنني سكبت مشاعري مرة واحدة في إناء مكسور ولم يعد لدي ما أمنحه؟

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

- وما أدراك أن مشاعرك ستظل كما هي؟

يتظر إلي طويلا ثم يخلع عويناته ويضعها أمامه.

- سارة، أنا لست غبيا، ربما لا أملك مهارات يوسف الاجتماعية لكنني أفهم الناس جيدا، من الجلي جدا أن هناك مشكلة تتعلق بثقتك بي، لقد أخبرتك أكثر من مرة أنني أحبك لكنك لم تحاولي - ولو كذبا - أن تخبريني بالمثل، من الواضح أيضا أن مشكلة الثقة لها جذور أقدم مني.

يقول الجملة الأخيرة بنبرة ذات مغزى، أظل صامتة، فيردف:

- أنا لم أسألك من قبل عما حدث في خطبتك الأولى ولا يهمني أن أعرف، ما يهمني فقط هو أن أتأكد أنك تجاوزت تلك المرحلة وبأنك تعين جيدا أنني لست «هو».

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

يبتسم.

- لا تستهيني بذكائي يا سارة، لم أكن أنوي الحديث في هذا الأمر لكنك أثرت الموضوع، أنا لست ملاكا أو قديسا، أنا بشر ولدي مشاعر مثلك تماما، أنا لم أجرحك أو أسبب لك أي أذى من أي نوع، لماذا تصرين على معاقبتي بجرم غيري؟

- أنا لا... لم... لقد أسأت الفهم.

يحمل عويناته مرة أخرى ويرتديها وهو يستعد للمغادرة.

- أعتقد أنه من الأفضل أن نبتعد قليلا، سأذهب إلى الصعيد لمدة أسبوع لدينا قافلة طبية هناك، ستكون هذه فرصة جيدة لكي يختلي كل منا بنفسه ويعيد ترتيب أوراقه، صدقيني، مهما كانت النتيجة سأتقبلها بصدر رحب، بشرط أن تكون صادقة.

يتركني عمر أحدق في الفراغ الذي كان يحتله ويغادر، ها هو رجل آخر يغادر عالمي وبوصلة مشاعري تعاني من الجنون حاليا، فلا أستطيع تحديد اتجاهاتها بالضبط، أطلب من النادل الحساب فيخبرني أن «الأستاذ» قد دفعه، أحمل حقيبتي لأغادر بدوري، حان وقت العودة إلى المنزل والنوم هربا من كل شيء.

***

يترجل محمود من سيارته حين يرى بسمة تتجه إلى مبنى مكتبها الجديد ويذهب إليها، تتباطأ خطوات بسمة حين تراه وتبادره:

- ماذا تفعل هنا؟

- أرد الزيارة.

يقولها بجفاء.

ترفع بسمة عويناتها السوداء على رأسها وتنظر له بجفاء لا يقل قسوة.

- شكرا، يمكنك الانصراف الآن.

تقولها وتتركه فيقف أمامها.

- لماذا يا بسمة؟

- لأنني حذرتك مرارا يا محمود.

يمسك ذراعيها بكلتي يديه ويكرر سؤاله.

- لماذا يا بسمة؟

تجذب ربطة عنقه بعنف.

- إياك أن تلمسني وإلا فسأجعلك حديث الساعة.

يترك ذراعيها فتترك ربطة عنقه.

- آسف، أنا لا أقصد أي سوء، أنت من يستفزني ليخرج أسوأ ما بي.

تبتسم بتهكم.

- كل إناء ينضح بما فيه يا دكتور.

- لم يظلمني أحد مثلك.

- أنا لم أظلمك مطلقا، أنت ظلمت نفسك، ماذا تريد يا محمود؟

ينظر إليها في حيرة، هو نفسه لا يدري ماذا يريد، يريد حبها، لكن هل الحب

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

بالطلب؟ وهل هو بالفعل يريده أم أن رفضها هو ما يشعل مشاعره لهذه الدرجة؟

- أنا... أنا...

تبتسم بسمة مرة أخرى لتزداد جمالا.

- محمود يا بني، توقف عن هذا العبث، هذا عالمي ولا مكان لك في هذا العالم، لقد أخبرت سارة بكل شيء ولم تعد بالنسبة إليها سوى شيطان مريد سرق حياتها في غفلة منها، وبالنسبة إلي، فأنا لا أهوى أمثالك، لقد جئت من منزل مفكك ولا أنوي تكرار المأساة، هذا هو الواقع ببساطة، فماذا تفعل بالضبط؟

يحدق محمود في عينيها مبهوتا، كيف تتحدث بهذه البساطة، بهذه القوة، بهذا الصدق؟ لوهلة يشعر أن عليه أن يجثو أمامها طالبا منها أن تعلمه الصدق، لقد أدمن الكذب للدرجة التي جعلت من الصدق عنصر إبهار في حياته التي اكتشف مؤخرا أنها بلا هدف وبلا معنى.

ترتدي بسمة عويناتها مرة أخرى وتستعد للرحيل، فلا يستوقفها هذه المرة، لكنه يقول بصوت خفيض:

- أنا آسف.

لا يبدو أنها سمعته وهي تواصل سيرها من دون الالتفات إليه، يعود محمود إلى سيارته وهو يشعر بالاختناق، لديه كل ما حلم بأن يكون له، لكنه يشعر بالخواء، لم يعد لأي شيء يفعله ذات المتعة، ظهور بسمة بعد هذه السنوات أجج مشاعر العصيان داخله على أسلوب حياته، تتذبذب مشاعره نحوها بالكره تارة وبالعشق تارة، لكنه يعلم أنها محقة، هو لا يصلح لها، ماذا تفعل يا محمود؟ تبدأ السيارة في التحرك، وفي رأسه ألف سؤال بلا إجابة.

***

عدت لتوي من المستشفى بعد زيارتي إلى رانيا ويوسف للاطمئنان على أميرتهما الصغيرة، غادر عمر القاهرة منذ أسبوع ولم أسمع عنه شيئا منذ ذلك اليوم في المطعم، لم تتحدث بسمة معي ثانية عن محمود، ولم أر ذلك الأخير بعد ما حدث في الفندق، حسام يبيت عند أحد أصدقائه مؤخرا كي لا تشعر صفاء بالحرج من وجوده، وبالتالي تشعر صفاء بالحرج لأنها تسببت في هذا الوضع، محمد ما زال يبحث عن عمل وأمي تبحث له عن شقة، الحياة تدور

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

دورتها المعتادة من دون أن تتوقف ثانية واحدة لتتعاطف مع أحد.

أجلس في مقعدي المفضل في الشرفة لأودع الشتاء، يتثاقل جفناي من التعب فأهم بالانتقال إلى الفراش، لكن قلبي يقع في قدمي حين أسمع صرخات عالية في المنزل، أعدو إلى الخارج وأتساءل في جنون:

- ماذا هناك؟

أجد أسرتي تقف في حيرة مثلي تماما وأول من يفيق هو محمد، الذي يفتح الباب ليعرف مصدر الصرخات، وما أن فتح الباب حتى رأيت المشهد الذي لن يغادر مخيلتي للأبد، طنط سعاد تجلس أمام الباب تصرخ بلا انقطاع بينما تقف منار خلفها تبكي وهي تحاول جذب أمها إلى الداخل، يهرع محمد إلى زوجها الذي يقف على مقربة شاخص البصر.

- ماذا حدث يا عمي؟

لم ينتظر الجواب لأن طنط سعاد صرخت بلوعة أم ثكلى:

- مها!

* * *

تدفنين وجهك في الهاتف في كل مكان، هنا، في أي تجمع عائلي، حتى في أثناء سيرك في الشارع، تمر الحياة بجانبك ولا ترينها، وكيف تريدين رؤيتها إذا أحنيت رأسك طوال الوقت ولم ترفعي عينيك عن هاتفك؟ هذا هو العمر الذي يجب أن تحزني عليه، العمر الذي تنثرينه ترابا مقابل حياة زائفة لا تسمن ولا تغني من جوع، ارفعي وجهك قليلا وانظري حولك قبل أن يضيع عمرك بأكمله حقا.

* * *

تنتهي المحاضرة وتغادر مها المركز، تحمل هاتفها وتتفقد رسائلها في أثناء عبورها الشارع للناحية الأخرى وهي تتساءل بجنون «متي يتغير حظك يا مها؟».

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

الفصل الأخير

أجلس في منزل مها لأحضر العزاء، أجلس بجانب أمي وصفاء في حالة من الذهول التام، ماتت مها، صدمتها سيارة مسرعة وهي تعبر الشارع غير منتبهة لأنها كانت تغير «حالتها» على «فيسبوك»! ماتت مها وهي تتشبث بهاتفها وعالمها الافتراضي وتلك العادة المقيتة، النظر إلى هاتفها في أثناء سيرها، ماتت مها وهي لم تبلغ الثلاثين التي خشيتها كثيرا، أسرتها في حالة من الانهيار التام، لم يحضر من أصدقائها سواي وبسمة، من الغريب أن يكون لديها ما يقرب من ألف صديق على صفحتها الشخصية ولا يحضر العزاء سوى اثنين! ماتت مها فقط لتذكرني بأن الموت لا يجامل الصغار.

أعود إلى منزلي وأغلق غرفتي خلفي، تمر حياتي أمامي مليئة بالأخطاء والخيارات الغبية، أريد أن أصلي، أريد أن أتحدث إلى خالقي، أذهب لأتوضأ وأعود إلى الغرفة لأبدأ في الصلاة، أقرأ الفاتحة بصوت مرتعش ثم أبدأ في قراءة خواتيم سورة البقرة التي كان أبي حريصا على تحفيظها لنا مع آية الكرسي، تومض حياتي في عيني المليئة بالدموع «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» أقابل محمود للمرة الأولى، أضع يدي في يده وأخبره بحبي، أحارب الجميع لأفرضه واقعا في حياتي، يخذلني، أهاجم أسرتي بدلا من مواجهته، أتشاجر مع أبي، يموت، «ربنا لا تؤاخذنا...» أبي مات ولم يسامحني، أجلس على فراشي أحمل عشرات الحبوب لأقتل نفسي، «ربنا لا تؤاخذنا» أجلس على سور الشرفة وأفكر في القفز، أمي تتهاوى بسبب غيبوبة السكري، عمر يحبني فلا أقابل حبه إلا بالجفاء، لا تقدر ساقاي على حملي فأسقط وأبكي، «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» أكررها بهيستيريا من بين دموعي، لقد لهى بي محمود وما زال يلهو، أنا من سمح بذلك، أنا من فعل ذلك، مها ماتت ولم أكن صديقة جيدة لها، كنت أعلم أن هناك مشكلة ووقفت متفرجة، «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» أنتحب حزنا على كل شيء، أبي، عمري، مها، عمر، مشاعري، أبكي واضعة رأسي على سجادة الصلاة، يجب أن أغير كل هذا، يجب أن أعيد حياتي إلى نصابها الصحيح، لكنني أريد الله بجانبي، «هلا منحتني القوة يا ربي؟ هلا ساعدتني؟» أبكي وأدعو بلا انقطاع حتى انتهت طاقتي ولم أشعر بشيء إلا في اليوم التالي.

أرتدي ملابسي وأغادر المنزل مبكرة كعادتي، لكنني لا أذهب إلى العمل، بل أذهب إلى المقابر، للمرة الأولى منذ موت أبي أزور قبره، أشعر برجفة تسري في

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

عروقي، أقف أمام القبر وأقرأ الفاتحة، ثم أضع يدي على الشاهد.

- أبي، سامحني، لقد أخطأت.

أرفع يدي وأغادر المقابر متجهة إلى المستشفى الذي يعمل به عمر، هي المرة الأولى أيضا التي أزوره في عمله، ترشدني إحدى الممرضات إلى مكانه فأتجه إليه.

- دكتور عمر.

يلتفت إلي بدهشة وينقل بصره بين عيني المنتفختين من أثر البكاء وزيي الأسود.

- ماذا حدث؟

- ماتت إحدى صديقاتي.

- البقاء لله، هل أنت بخير؟

أومئ براسي إيجابا.

- أريد أن أتحدث معك قليلا، ممكن؟

- بالطبع، ثانية واحدة.

يطلب من أحد زملائه أن يحل محله ونتجه إلى أحد المقاهي القريبة.

- عمر، أنا آسفة، لقد مررت بوقت عصيب منذ موت أبي، ولم أتعاف حتى الآن، وربما لن أتعافى أبدا، أنت لا تعلم ذلك لكن... لقد تشاجرت معه قبل موته وقلت أشياء في منتهى السوء والسخف، كانت آخر كلماتي له مجرد ترهات غاضبة لذا لم أسامح نفسي، هذه الترهات كانت نتيجة اختياري لإنسان سيئ أصاب ثقتي في مقتل، ثم جئت أنت، لديك الكثير من الصفات التي كانت لتسعد أبي.

- أباك فقط؟

للمرة الأولى منذ وقت طويل أبتسم.

- لقد تحملت تحفظي، وأدخلتني عالما جديدا، وكنت صديقا جيدا.

- لن تتركيني بعد هذه المقدمة الطويلة أليس كذلك؟

تذكر انك حملت هذا الكتاب من مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

أضحك.

- كف عن مقاطعتي، أنا أحاول أن أتحدث بجدية.

يشير بيده أن أكمل، فأردف:

- أريد أن أبدأ كل شيء من جديد، أريدك أن تعرفني بلا عقد ولا مخاوف، ممكن؟

يمد يده ليحتضن يدي، ويحرك خاتم الخطبة بأنامله.

- كل شيء ممكن، ما دمت لم تنزعي قيدي من يدك، فلا مفر يا عزيزتي.

أبتسم من جديد، سأبدأ رحلة جديدة، سأفعل كل شيء بطريقة صحيحة هذه المرة، والبداية هي التخلص من أشباح ماضٍ قيدتني بذكرياتها سنوات بلا أمل في الخلاص، وحين ظهر الأمل تغاضيت عنه خوفا، لقد صدقت بسمة كالعادة، هذا الأمر يستحق.

الحزن لا يقتل، الحزن يجعلنا نذوي ببطء، يجعلنا نزهد في آلية التنفس ونتمنى أن تصاب بالعطب وتتوقف، ينتزع الألوان من قوس قزح ذاته، يلقي الشبه على كل ما يدور حولنا فنمل كل شيء لأنه معاد ومكرر وممل، صحيح أن الحزن لا ينقل أسماءنا من كشوف الأحياء إلى شهادات الوفاة، لكنه يفعل ذلك في أرواحنا، يطل من أعيننا التي تفقد بريقها، يطل من ابتساماتنا الكسيرة، من هزات رؤوسنا وانهزام أحلامنا، صحيح أن الحزن ليس كيانا ماديا لكنه مع ذلك يمكن تمييزه بسهولة، مهما حاولنا لا يمكننا إخفاؤه، وتلك هي المشكلة.

رأيته جليا في عيني صفاء المشتاقة إلى الأمومة حد المرض، رأيته في انطوائية مها وابتعادها عن العالم، في انعكاس صور بسمة القديمة، في شرود أمي عندما تجلس بمفردها تحتسي الشاي بالنعناع وتستمع إلى أم كلثوم، في إحساس محمد بالعجز عن توفير حياة مشابهة لما وفره أبي لنا، في حديث يوسف عن ابنته، وفي كلمات عمر عني، أراه وأعرفه جيدا لأنه يسكنني منذ رحيل أبي، منذ تخلي محمود عني، أعرفه جيدا لأنني منحته موطنا في روحي، وحان وقت الجلاء.

نتشبث بذكرياتنا كطفل عنيد يحاول الإمساك بلهب شمعة على الرغم من أنها تحرق أنامله، نتشبث بماضٍ ننشد في تفاصيله رائحة سعادة أو أثر ابتسامة، نتشبث في ضراعة لعلنا نجد في أزقة الذكريات ما يجعلنا نبتسم، لكن ما يحدث

هو أننا نبكي كثيرا، نبكي أنفسنا ومن سكنوا أنفسنا، وتظل الحال كما هي عليه إلى أن ننسى، حين نقرر النسيان، حين نقرر المضي قدما، حين نقرر الانغماس في حاضرنا، عندها فقط، يولد الأمل في أن نقابل السعادة من دون موعد، نقابلها في حافلة متجهة إلى الواحات، في صورة طفلة تضحك على الرغم من القلب العليل، في عيني أم يوم خطبة ابنتها، نقابلها في ابتسامة محتاج منحناه فرحة صغيرة، في امتنان صديق وجدنا بجانبه عند الحاجة، أجل، يمكننا مقابلة السعادة رغم أنف الحزن، لكن ذلك لا يحدث، لا فرصة في حدوثه، إلى أن ننسى.

أجلس مع عمر نتحدث بشراهة عن حالنا وعن أحلامنا، أشعر بالتئام الكثير من الجراح في قلبي على الرغم من الندوب القبيحة التي ستظل دوما لتحذرني من تكرار أخطاء الماضي، كل من حولي لديهم مشكلاتهم ومعاناتهم الخاصة، وكلي أمل أن يجد كل منهم حلولا لما يؤرقه، ربما لن يحظى الجميع بالنهاية السعيدة لكنني سأعمل جاهدة على كتابة نهايتي السعيدة، فأنا أستحقها، أنظر إلى عمر وهو يتحدث وأنتبه إلى ملامحه وكأنني أراه للمرة الأولى، أرى صداقة يوسف ورانيا تولد بيننا، أرى تمسك محمد وصفاء ببعضهما، أرى حلم أبي ودفء أخي فيه، والأهم، أرى زوجا وأبا لأبنائي، أجل يا عمر، أنت استجابة صلواتي، وأنت الفرصة الثانية التي لن أفرط فيها مطلقا، لن أقلق من الحزن مرة أخرى، ولن أخشى الإصابة بالاكتئاب أو الإحباط ثانية، فأنت لدي، سأستمد قوتي من وجودك، من أسرتي، من أصدقائي، من حبك لي وإيمانك بي حتى عندما فقدت إيماني بنفسي، سأكتب معك البداية الجديدة وسأجلس معك يوما لنخبر أطفالنا عن قصتنا يا عمر، وسأحبك.

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF
تابعونا على الموقع الرسمي
www.maktabbah.blogspot.com
أو على قناة التيليجرام
t.me/alanbyawardmsr
maktabbah.blogspot.com